# الباب الثاني

## تأثير المأساة على الشعراء الفلسطينيين[1] في:

## أ- لبنان.

## ب- الأرض المحتلة

## ج- خارج الأرض المحتلة.

(١) ينبغي القول أن تقسيم الشعراء الفلسطينيين في لبنان أو في الأرض المحتلة أو في خارجها، هو تقسيم تقريبي، فالشعراء الفلسطينيون كثيرو التنقل، ولذا يصعب الفصل بينهم من الناحية المكانية، ولكننا نأخذ بغالبية الإقامة.



obeikandl.com

obeikandl.com

# الفصل الأول

## تأثير المأساة على الشعراء الفلسطينيين في لبنان

obeikandl.com

obeikandl.com

حرب لبنان، وحصار المخيمات، وقتل الأطفال وتشريد الآلاف من بيوتهم، كان له أكبر الأثر على شعراء فلسطين الذين عاشوا المحنة منذ بدايتها، هناك الكثير من الشعراء الفلسطينيين كتبوا عن مأساة لبنان في الداخل، من وسط الحصار، ومن خارج لبنان ومن هؤلاء الشعراء محمود درويش حيث كتب عن المأساة من داخل بيروت ناقلاً صورة كاملة للمرارة والألم اللذين حلا بالشعبين اللبناني والفلسطيني. ونأخذ مثالاً من قصائده وهي قصيدة «بيروت»، هي ملحمة شعرية صادقة تنبع عن نفس معذبة محرومة، وفيها يقول درويش واصفاً مدينة بيروت بالعروس، التفاحة.. الأمان.. الخيمة معرِّجًا على تدمير هذه المدينة الجميلة، فيقول:

تفاحة للبحر.. نرجسة الرخام

فراشة حجرية.. بيروت.. شكل الروح في المرآة

وصف المرآة الأولى، ورائحة الغمام.

بيروت من تعب ومن ذهب، وأندلس وشام

فضة، زبد، وصايا الأرض في ريش الحمام

وفاة سنبلة، تشرُّدُ نجمة بيني وبين حبيبتي بيروت

لم أسمع دمي من قبل ينطق باسم عاشقة تنام على دمي.. وتنام.

من مطر على البحر اكتشفنا الاسم، من طعم الخريف

وبرتقال القادمين من الجنوب، كأننا أسلافنا نأتي إلى بيروت

كي نأتي إلى بيروت

من مطر بنينا كوخنا، والريح لا تجري فلا نجري، كأن الريح

مسمار على الصلصال تحفر قبونا فننام مثل النمل في القبو الصغير

كأننا كنا نغني خلسة:

بيروت خيمتنا

بيروت نجمتنا[1]

نلاحظ كثيرًا من جمل المقطع التي تكثّف الفجيعة ومرارتها "رائحة الغمام" "بيروت من تعب" "زَبَد" "وصايا الأرض" "وفاة سنبلة" "تشرد نجمة" ثم انظر إلى الأمل الذي سرعان ما تبخر مع الريح في قوله: "من مطر بنينا كوخنا"، أو قوله «تغني خلسة».

يتابع الشاعر محمود درويش قصيدته بوصف دقيق للحالة السيئة التي أصبحنا نعيشها بعد في بيروت:

سبايا نحن في هذا الزمان الرخو

أسلمنا الفزاة إلى أهالينا

فما كدنا نَعض الأرض حتى انقض حامينا

على الأعراس والذكرى

فوزعنا أغانينا على الحراس

من ملكٍ على عرشٍ

إلى ملكٍ على نعشٍ

سبايا نحن في هذا الزمان الرخو

لم نعثر على شَبَهٍ نهائي سوى دمنا

ولم نعثر على ما يجعل السلطان شعبيًا

ولم نعثر على ما يجعل السجّان وديًا

ولم نعثر على شيء يدل على هويتنا

سوى دمنا الذي يتسلق الجدران

تنشد خلسة:

بيروت خيمتنا

بيروت نجمتنا

---

(١) محمود درويش/ حصار لمدائح البحر، دار العودة – بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ص٨٩ .



obeikandl.com

لاحظ حجم المأساة التي صورها الشاعر، من خلال جمل "سبايا نحن"، "الزمن الرخو"، "أسلمنا الغزاة"، وتأتي المفارقة بأن التسليم ليس لعدو، ولكن "إلى أهالينا"! لاحظ مرارة المأساة من خلال جمل "نعض الأرض" "دمنا الذي يتسلق الجدران"، ثم لا حظ التوازي الصوتي والاختلاف الدلالي بين ملك على عرش/ ملك على نعش.. فيكون السؤال هل يتساوى العرش مع النعش، ربما يتساويان في بعض المواقف وما أكثرها!!

ثم يجأر درويش بالمأساة، ممرّضًا بالعرب ونفطه الزائل، فيقول:

عنقودًا من القتلى بلا سبب..

وجئنا من بلاد لا بلاد لها

وجئنا من يد الفصحى ومن تعبِ

خراب هذه الأرض التي تمتد من قصر الأمير إلى زنازننا

ومن أحلامنا الأولى إلى.. حطبِ

فأعطينا جدارًا واحدًا لنصيح يا بيروت

أعطينا جدارًا كي نرى أفقًا ونافذة من اللهب

وأعطينا جدارًا كي نعلق فوقه سدوم

التي انقسمت إلى عشرين مملكة

لبيع النفط.. والعربي

وأعطينا جدارًا واحدًا

لنصيح في شبه الجزيرة:

بيروت خيمتنا الأخيرة

بيروت نجمتنا الأخيرة

ولا شك أن بيروت كانت خيمة تأوي أولئك الذين نذروا أنفسهم للجهاد من أجل تحرير بلادهم، وهنا نلمح حزن الشاعر، بل بكاءه على فراق بيروت الأم.. الحبيبة، النجمة الخيمة، يبكي الشاعر على التشتت الذي حدث للشعب الفلسطيني بعد حصار المدينة.. إن بيروت حزينة تبكي.. مثلما نبكي على فراقها.. فها هي بيروت الآن أصبحت

بين المخالب الحاقدة، ولا مدافع عنها إلا من أحبها كما أحب القدس!!

أفق رصاصي تناثر في الأفق

طُرق من الصدف المجوف.. لا طُرق

ومن المحيط لى الجحيم

من الجحيم إلى الخليج

ومن اليمين إلى اليمين إلى الوسط

شاهدتُ مشنقة فقط

شاهدتُ مشنقة بحبل واحد

من أجل مليوني عنق!!

لاحظ أن الشاعر في المقطع السابق، أورد كلمة «الجحيم» مرتين مكررتين، وهما في منطقة وسطى بين «المحيط» و«الخليج»، بمعنى أن الجحيم يمكث بمخالبه وحوافره في منطقتنا العربية، خاصة وسطها، وهو يرمز بذلك لـ «فلسطين» و«لبنان».

ثم يذكّر الشاعر الأمة العربية بما حدث للمسلمين في الأندلس:

بيروت! من أين الطريق إلى نوافذ قرطبه

أنا لا أهاجر مرتين

ولا أحبك مرتين

ولا أرى في البحر غير البحر

لكني أحوِّم حول أحلامي

وأدعو الأرض جمجمة لروحي المتعبة

وأريد أن أمشي..

لأمشي

ثم أسقط في الطريق.. إلى نوافذ قرطبه

ثم يصف الهم والحزن اللذين حلا به حين غادر بيروت في لحظة قصيرة.. كل

الذكريات انتهت في لمحة بسيطة.. ويتذكر الشاعر كل شيء في بيروت من حب ودمار، يذكر نفسه وهو بين موت وحياة، بين يأس ورجاء.. ولكن..

بيروت شاهدة على قلبي

وأرحل عن شوارعها وعني

عالقًا بقصيدة لا تنتهي

وأقول: ناري لا تموت

على البنايات الحمام

على بقاياها السلام

أطوي المدينة مثلما أطوي الكتاب

وأحمل الأرض الصغيرة مثل كيس من سحاب

أصحو وأبحث في ملابس جثتي عني

فتضحك: نحن ما زلنا على قيد الحياة
وسائر الحكّام

شكرًا للجريدة لم تقل أني سقطت هناك سهوا

أفتح الطرق الصغيرة للهواء وخطوتي والأصدقاء العابرين

وتاجر الخبز الخبيث، وصورة البحر الجديدة

شكرًا لبيروت الضباب..

شكرًا لبيروت الخراب..

تكسرت روحي، سأرمي جثتي لتصيبني الغزوات ثانيةً

ويسلمني الفزاة إلى القصيدة..

أحمل اللغة المطيعة كالسحابة

فوق أرصفة القراءة والكتابة:



obeikandl.com

"إن هذا البحر يترك عندنا آذانه وعيونه"

ويعود نحو البحر بحريًا

لاحظ مرارة الشاعر من خلال جمل كثيرة نذكر منها: «أرحل عن شوارعها، وعني»، «أصحو وأبحث في ملابس جثتي عني»، «ما زلنا على قيد الحياة»، «الطرق الصغيرة للهواء»، «بيروت الضباب»، «بيروت الخراب»، «تكسرت روحي»... إلخ.

ينتقل الشاعر إلى تذكر أرض فلسطين، ويوضح لنا بأن التشرد يطارد الإنسان الفلسطيني، إذ طرد من أرضه فلسطين إلى المنافي المختلفة، وهو يطرد الآن من بيروت إلى منفًى آخر وهكذا، لكن الشاعر يؤكد بأن الحق لا يضيع وأن هذا الإنسان سوف يعود إلى وطنه ما دام تصميمه موجودًا.

ترك الشاعر بيروت إلى مدينة جديدة.. يترك السيف والحرب ليذهب إلى السلام، ويأسف الشاعر على هذه الأمة التي لا تستقبل محاربيها كما يحدث عند الغرب حين يتوج الفاتحون، ونرى سخط الشاعر على هذه الأمة اللاهية في الملذات حتى أذنيها.. بل يمقتها؛ لأنها أمة نائمة ذليلة، لا تحرك ساكنًا ولا توقف قاعدًا.

وهذه المدن العربية الهشة لِمَ لمْ تقدم لبيروت العون والمساعدة؟! الحجر قاتل والشجر حمَلَ البندقية وقاوم، كل ذرة قاومت.. والأمة العربية في غيابة الجبِّ تغمض عينيها خوفًا على خزائنها.. وتعلق المشانق لأبطالها، إن جأروا بمجرد الصراخ يقول:

وداعًا للذي سنراه

للفجر الذي سيشقنا عما قليل

لمدينة ستعيدنا لمدينة

لتطول رحلتنا وحكمتنا

وداعًا للسيوف وللنخيل

لحمامة ستطير من قلبين محروقين بالماضي

إلى سقف من القرميد..

هل مر المحارب من هنا

كقذيفة في الحرب؟

هل كسرت شظاياه كؤوس الشاي في المقهى؟

أرى مدنًا من الورق المسلح بالملوك وبدلة الكاكي،

أرى مدنًا تتوّج فاتحيها

والشرق عكس الغرب أحيانًا

وشرق الغرب أحيانًا

وصورته وسلعته..

أرى مدنًا تتوّج فاتحيها

وتصدّر الشهداء كي تستورد الويسكي

وأحدث منجزات الجنس والتعذيب

هل مرَّ المحارب من هنا

كقذيفة في الحرب؟

هل كسرت شظاياه كؤوس الشاي في المقهى؟

أرى مدنًا تعلّق عاشقيها

فوق أغصان الحديد

وتشرّد الأسماء عند الفجر..

عند الفجر يأتي سادن الصنم الوحيد

ماذا نودع غير هذا السجن؟

ماذا يخسر السجناء؟

نمشي نحو أغنية بعيدة

نمشي إلى الحرية الأولى

فنلمس فتنة الدنيا لأول مرة في العمر..



obeikandl.com

بوركت الحياة

وبورك الأحياء

فوق الأرض

لا تحت الطغاة

تحيا الحياة!!

تحيا الحياة!!

ويتابع محمود درويش قصيدته الملحمية الرائعة قائلاً:

فسِّر ما يلي:

بيروت "بحر – حرب – حبر – ريح"

يبدأ درويش في شرح كيف هي بيروت، بحر، وكيف هي حرب وكيف هي حبر، وريح، فيقول:

البحر: أبيض أو رصاصي، وفي إبريل أخضر،

أزرق، لكنه يحمرُّ في كل الشهور إذا غضبْ

والبحر مال على دمي

ليكون صورة من أُحبّ

واستفسار الشاعر عن بيروت له دلالة، فهي في نظره البحر الهادئ الموج الدافئ، وهي أيضًا الموج الغاضب الهادر في ساعات الغضب، بل يصبح لونه أخضرَ في شهر إبريل.. يتلون البحر بعدة ألوان، وهذه بيروت البيضاء الجميلة، السوداء الحزينة من جراء القصف العشوائي.. فهي أغنية الغربة.. والضياع.. والتشرد.. بفقدان بيروت فقدنا الأم التي عطفت علينا بعد فلسطين.. والحرب في نظر الشاعر هي الهاجس الذي يهدد كيان كل فرد.. ولكن الفلسطيني اعتاد على حمل السلاح ومواجهة الحروب، فأصبح معرضًا لها أينما ذهب..

الحرب: تهدم مسرحيتنا لنلعب دون نص أو كتاب

والحرب: ذاكرة البدائيين والمتحضرين.

والحرب: أولها دماء

والحرب: آخرها هواء

والحرب: تثقب ظلنا لتمر من باب لباب

إذن الحرب هدم وتدمير، وشريعة الغاب، وهي قانون البدائيين، وهي أيضًا – للأسف – راسخة في ذاكرة المتحضرين، الحرب دماء وصراخ، يظن المتحاربون أنها – الحرب – سبب الحرية، ولكنه ظن خاطئ، ورغم باطل.

أما الحبر في رأي الشاعر فهو للأغاني وللمتفرجين وللمستسلمين من العرب:

الحبر: للفصحى، وللضباط، والمتفرجين على أغانينا

وللمستسلمين لمنظر البحر الحزين

الحبر: نمل أسود، أو سيِّدٌ..

والحبر: برزخنا الأمين

أما الربح فهو المشرد لنا.. وبيروت فيها التجارة الواسعة منذ زمن قديم.. وأثناء الحرب أصبح الاستغلال للسلع ظاهرة واقعية يعاني منها الإنسان في بيروت، فالربح استغلال وهو وجه قبيح آخر للحرب وما تخلفه لنا من مساوئ، فيقول:

والربح: مشتق من الحرب التي لا تنتهي

منذ ارتدت أجسادنا المحراث

منذ الرحلة الأولى إلى صيد الظباء

حتى بزوغ الاشتراكيين في آسيا وفي أفريقيا!!

والربح: يحكمنا..

يُشرِّدنا عن الأدوات والكلمات

يسرق لحمنا

ويبيعه

لاحظ أن كلمات (بحر – حرب – حبر – ربح) التي وصف الشاعر بيروت بها، هي

في حقيقتها كلمة واحدة مكونة من ثلاثة أحرف (ب - ح - ر)، ولكن شاعرنا بَدّل الحروف، وغيَّر مواضعها فكانت هذه الاشتقاقات متغيرة الدلالة، ومن ثم كان قصد الشاعر أن بيروت مدينة تغيرت أحوالها وتبدَّلت.

ويتابع محمود درويش وصفه لمدينة بيروت وحصارها وخروج المقاتلين الفلسطينيين منها بأسلوب مليء بالحزن والحسرة والنقمة على الغازي.. فيقول:

أحرقنا مراكبنا. وعلَّقنا كواكبنا على الأسوار

نحن الواقفين على خطوط النار نعلن ما يلي:

بيروت تضاحه

والقلب لا يضحك

وحصارنا واحه

في عالم يهلك

سنرقِّص الساحه

ونزوِّج الليلك

أحرقنا مراكبنا.. وعلقنا كواكبنا على الأسوار

لم نبحث عن الأجداد في شجر الخرائط

لم نسافر خارج الخبز النقي وثوبنا الطيني

لم نرسل إلى صدف البحيرات القديمة صورة الآباء

لم نولد لنسأل: كيف تم الانتقال الفذ مما ليس عضويًا إلى العضوي؟

لم نولد لنسأل..

قد ولدنا كيفما اتفق

انتشرنا كالنمال على الحصيرة

ثم أصبحنا خيولاً تسحب العربات..

نحن الواقفين على خطوط النار



obeikandl.com

أحرقنا زوارقنا، وعانقنا بنادقنا

سنوقظ هذه الأرض التي استندت إلى دمنا

سنوقظها، ونُخرج من خلاياها ضحايانا

سنغسل شعرهم بدموعنا البيضاء

نسكب فوق أيديهم حليب الروح كي يستيقظوا

ونرش فوق جفونهم أصواتنا:

قوموا ارجعوا للبيت يا أحبابنا

عودوا إلى الريح التي اقتلعت جنوب الأرض من أضلاعنا

عودوا إلى البحر الذي لا يذكر الموتى ولا الأحياء

عودوا مرة أخرى

فلم نذهب وراء خطاكمُ عبثًا

مراكبنا هنا احترقت

لاحظ أن التكرار في المقطع السابق، وقد ورد بأشكال كثيرة، أفاد معنى لتحقيق الهدف، كما أفاد معنى التحدي للعدو.

وللشاعر قصيدة أخرى تحت عنوان: «مديح الظل العالي» يصور فيها مأساة لبنان منذ احتلال الجيش الإسرائيلي لجنوبه وحتى خروج المقاومة الفلسطينية من بيروت إلى منافي الدول العربية الصديقة والشقيقة.

ومحمود درويش يخبرنا في هذه القصيدة الطويلة بكل مجريات الحرب والحصار، والدم، والقتل. ونجده يصف أيام حصار بيروت وكل ما حدث أثناء اليوم، صباحًا، ومساءً، كان يتابع ما يجري يوميًا في المدينة الصامدة بأهلها وبأبطالها.. صامدة بحجارتها التي أصبحت رصاصًا في وجوه قوات الاحتلال التي كانت تقصف بيروت الغربية من الشطر الشرقي للمدينة نفسها.

وصف درويش الأقدام الهمجية التي داست على كرامة الأمة العربية ولم تجد من يقف في طريقها إلا نفر قليل من الرجال الأبطال الذين تعاونوا مع أبطال المقاومة في

بيروت، ويقول الشاعر، واصفًا الحالة التي مرَّ بها سكان بيروت أثناء الحصار من قتل وتجويع وتشريد!

خذ بقاياك، اتخذني ساعدا في حضرة الأطلال، خذ قاموس ناري

وانتصر

في وردة ترمي عليك من الدموع

ومن رغيف يابس، جاف، وعار

وانتصر في آخر التاريخ

لا تاريخ إلا ما يؤرخه رحيلك في انهياري

قلنا لبيروت القصيدة كلها، قلنا لمنتصف النهار

بيروت قلعتنا

بيروت دمعتنا

ومفتاح لهذا البحر، كنا نقطة التكوين[1]

الشاعر يورد حقيقة أن الفلسطيني قاتل وحده في بيروت وغيرها، ويقول مخاطبًا الفلسطيني: لقد قدمت جسمك مقابل أن تحصل على حبة زيتون.. صمودك من أجل عودتك يكلفك الكثير وربما حياتك، قاومت بكل شجاعة في منفى جديد خارج أرضك وزيتونك،فأنت السيد وأنت ابن الهواء الصلب.. أنت الإعصار.. لا أحد يستطيع أن يقيدنا أو يحطمنا، وإذا استطاع قتلنا فسيأتي من يحمل الأمانة ويتابع المسيرة حتى النصر المؤزر والعودة للقدس الحبيبة:

كم كنت وحدك، يا بن أمي،

يابن أكثر من أب،

كم كنت وحدك

القمح مرٌّ في حقول الآخرين

والماء مالح

---

(١) محمود درويش: مديح الظل العالي، دار العودة - بيروت، ط٢، ١٩٨٤م، ص٥ - ٨ .



obeikandl.com

والغيم فولاذ، وهذا النجم جارح

وعليك أن تحيا، وأن نحيا

وأن تعطي مقابل حبة الزيتون جلدك

كم كنت وحدك

لا شيء يكسرنا، فلا تغرق تمامًا

فيما تبقى من دم فينا..

لنذهب داخل الروح المحاصر بالتشابه واليتامى

يابن الهواء الصلب، يابن اللفظة الأولى على الجزر القديمة

يابن سيدة البحيرات البعيدة، يابن من يحمي القدامى،

من خطيئتهم، ويطبع فوق وجه الصخر برقًا أو حماما

الشاعر يقدم لنا صورة مأساوية للإنسان المحاصر داخل أسوار بيروت، وداخل مخيمات لبنان، صورة لجسم هذا الإنسان الذي أصبح يُقطّع، ويرمى في كل مكان.. هذا الجسم الآدمي أين قيمته في الحياة؟! أليس للإنسان قيمة؟ نعم إن هذا الإنسان أصبح صيدًا لليهود وللعملاء في كل جهة، ولكن ألم يعلموا أن هذا اللحم الآدمي.. مر المذاق صعب المنال.. هذا لحم الإنسان الصامد الشريف، ومهما حدث فإن العذاب والضياع والغربة عنوان كل فلسطيني يعيش على هذه الأرض، ولا شك أن الشاعر في هذه القصيدة الطويلة قدّم لنا وصفًا حيًا عن حرب لبنان.. بتفاصيلها الدقيقة حصار بيروت.. خروج المقاتلين الفلسطينيين إلى منافي الصحاري العربية، وأزقة العواصم العربية المهانة!

ومحمود درويش يستخدم الرمز في شعره كما لاحظنا في المقاطع السابقة، والرمز الشعري يستخدمه الشعراء في العصر الحديث، "فالرمز الذي يؤدي وظيفة نفطن إليها، ونعترف بها، يشخّص خبرة عامة يتردد صداها من ضمير إلى ضمير أثناء أزمان متطاولة، ولن يقوى على ذلك ما لم يرتفع على ما هو شخصي أو موضوعي، ويصبح عاملاً من عوامل الاتصال المنتجة"[1]، أو هو ما عبَّر عنه إزرا باوند في قوله: «الكلمة

---

(١) الدكتور مصطفى ناصف الصورة الأدبية، مكتبة مصر، القاهرة ١٩٥٨م، ط١، ص ١٨٢، وانظر تفاصيل ذلك في الدراسة الفنية لهذا الشعر بالباب الرابع من هذه الدراسة.

مشحونة بالمعنى»[1]، فللكلمة طاقة تعبيرية قوية.

يقول درويش:

لحمي على الحيطان لحمُك يابن أمي

جسد لأضراب الظلال

وعليك أن تمشي بلا طرق

وراءً، أو امامًا، أو جنوبًا أو شمال

وتحرك الخطوات بالميزان

حين يشاء من وهبوك قيدك

ليزينوك، ويأخذوك إلى المعارض كي يرى الزوار مجدك

كم كنت وحدك

لقد ردد الشاعر عبارة "كنت وحدك" في هذه القصيدة كثيرًا، خاصة عندما تحدث عن حصار بيروت والمقاومة الفلسطينية التي كانت تدافع وحدها عن المدينة، وأيضًا نجد الشاعر يحذر الفلسطيني ممن حوله، لأنهم خذلوه وكسروه في المعركة، وتتفجر عواطف الشاعر في هذه المقاطع وكأنها قنبلة موقوتة لزمن محدد، في وجه من أنكر الوجود الفلسطيني، وساعد على ترحيل المقاتلين الفلسطينيين منها، يقول: درويش في مرارة:

كسروك كم كسروك كي يقفوا على ساقيك عرشا

وتقاسموك وأنكروك وخبَّأوك وأنشأوا ليديك جيشا

حطوك في حجر.. وقالوا لا تُسَلِّم

ورموك في بئر.. وقالوا لا تسلِّم

وأطلت حربك، يابن أمي،

---

(١) أرشيبالد مكليش. الشعر والتجربة، ترجمة: سلمى الخضراء الجيوسي. الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م، ص ١٨.

ألف عام، ألف عام، ألف عام، في النهار

فأنكروك لأنهم لا يعرفون سوى الخطابة والفرار

هم يسرقون الآن جلدك

فاحذر ملامحهم.. وغمدك

كم كنت وحدك، يابن أمي

يابن أكثر من أبي،

كم كنت وحدك

يلاحظ نبرات الحزن والأسى في المقطع السابق، ثم يلاحظ استعمال الضمير/ الغائب في كثير من الكلمات: «كسروك، تقاسموك، أنكروك،....؛ لأنهم، هم يسرقون» استعمال الشاعر هذا الضمير بكثرة على هذا النحو يوحي بأنه لا يريد مجرد ذكر اسمهم، فمجرد ذكر اسمهم يشعر بالغصة، لذا لجأ إلى الضمير الغائب، في مقابل استعمال ضمير المخاطب هؤلاء الأبطال الذين يستعذب الشاعر ذكرهم.

في المقاطع السابقة يذكر الشاعر بأن هناك من طلب من المقاومة الفلسطينية القتال وعدم الاستسلام حتى الموت دون أن يقدم أي مساعدة، ونلاحظ أن كلمة "كم" تتكرر كثيرًا لأنها تدلُّ على التكثير والأخبار، ويخبرنا الشاعر بأن هؤلاء لا يجيدون إلا إلقاء الخطب الرنانة، والفرار من المعارك والاختباء في دهاليز ومواخير الصمت والاستكانة!!

ويلاحظ – أيضًا – قوله بصيغة الجمع «حطوك/ قالوا/ رموك/ أنكروك/ لأنهم/ يعرفون/ هم/ ....». ودلالة الخطاب الجمعي تشير إلى أمة بكاملها لم تجرؤ حتى على الاستنكار!!

ثم يتابع درويش قوله:

والآن والأشياء سيدة، وهذا الصمت عال كالذبابه

هل ندرك المجهول فينا؟ هل تغني مثلما كنا نغني؟

سقطت قلاع قبل هذا اليوم، لكن الهواء حامض

وحدي أدافع عن جدار ليس لي

وحدي على سطح المدينة واقف..

أيوب مات، وماتت العنقاء، وانصرف الصحابه

وحدي أراودُ نفسي الثكلى فتأبى أن تساعدني على نفسي

ووحدي، كنت وحدي

عندما قاومت وحدي

وحدة الروح الأخيره..

لاحظ استلهام الشخصية التراثية من خلال «أيوب» مضرب الأمثال بالصبر والمقاومة، وعدم الاستكانة، والتشبث بالأمل، ولاحظ استلهام الأسطورة من خلال «العنقاء»، ذلك الطائر الخرافي الذي يولد من رماد احتراقه، كلما احترق، وهو يوحي بتوالد الأمل في الحياة، ولاحظ - أيضًا - النبرة الصوتية العالية المترددة خلال تكرار كلمة «وحدي» الدالة على التحدي والصمود.

ثم إن درويش يستلهم النص الديني الإسلامي، مؤازرًا الفدائي بشحنة معنوية دفاقة تجبره على الصمود والمقاومة، فيقول:

الله أكبر

هذه آياتنا، فاقرأ

باسم الفدائي والذي خلقا

من حزمه أفقا

باسم الفدائي الذي يرحل

من وقتكم.. لندائه الأول

الأول الأول

سندمر الهيكل

باسم الفدائي الذي يبدأ

اقرأ



obeikandl.com

بيروت – صورتنا

بيروت – صورتنا

بيروت – لا[1]

والشاعر يتحدث لابنته/ الأمل القادم الصامد تحت التهديد والاغتيال، فيقول:

نامي قليلاً، يا ابنتي نامي قليلا

الطائرات تعضني.. وتعض ما في القلب من عسل

فنامي في طريق النحل نامي

قبل أن أصحو قتيلا...

نامي قليلاً

الطائرات تطير، والأشجار تهوي

والمباني تخبر السكان، فاختبئي بأغنيتي الأخيرة،

أو بطلقتي الأخيرة، يا ابنتي

ويتحدث الشاعر عن مأساة الفلسطيني في لبنان مبينًا عمقها من خلال أمثلة أوردها، فالأشلاء الآدمية في كل زاوية وشارع، وتدمير المنازل، والقتل والقصف، وتجسدت المأساة في وقوف العرب مكتوفي الأيدي لا يحركون ساكنًا، وهو هنا يميط اللثام عن صمتهم المريب، متحدثًا لأخيه الفدائي الرابض بجواره في الخندق:

أشلاؤنا أسماؤنا.. لا.. لا مفر

سقط القناعُ عن القناع عن القناع

سقط القناع

لا أخوة لك يا أخي، لا أصدقاء

يا صديقي، لا قلاع

---

(١) اقرأ تحليل هذا النص في مجلة إبداع العدد ٧، ٨، القاهرة ٢٠٠٨م، ص. محمد سالمان «استلهام النص الديني عند محمود درويش»، وانظر أيضًا الدراسة الفنية بالباب الثاني من هذا الكتاب.



obeikandl.com

لا الماء عندك، لا الدواء، ولا السماء، ولا الدماء، ولا الشراع

ولا الأمام، ولا الوراء

حاصر حصارك.. لا مفر

سقطت ذراعك فالتقطها

واضرب عدوك.. لا مفر

وسقطتُ قربك، فالتقطني

واضرب عدوك بي.. فأنت الآن حر

حرٌ.. حرٌ

قتلاك، أو جرحاك فيك ذخيرة

فاضرب بها، اضرب عدوك.. لا مفر

لاحظ كثرة التكرار بالمقطع، فالشاعر يلح على فكرته ويريد ترسيخها في ذهن الفدائي، فكان تكرار "لا"، "سقط القناع"، "اضرب"، "حر"، وعلى الرغم من غنائية المقطع ومباشرته فإن به توهج شعري مؤثر نتج عن التكرار، فضلاً عن العاطفة الصادقة.

ويعود الشاعر إلى تفصيل مأساة بيروت، بالحديث عنها أيام الحرب في الفجر، ووقت الظهيرة، وحين يهدمها الليل المظلم المضيء بقنابل الجيش الإسرائيلي، ويستخدم الشاعر الرمز بشكل كبير في قصيدته؛ لأن الشاعر أحس بالمرارة، ومرَّ بالتجربة، ويجب على الشاعر أن يكون في مقدوره أن يحس بالتيار الرئيسي الذي يسري عبر الأجيال والعصور السابقة، يحتاج الشاعر المعاصر إلى أن يدرك أن العقل العربي، وهو أهم بكثير من عقله، يتغير في تطور لا يغفل فيه القديم من أجل الجديد، وليس الحاضر المتيقظ إلا وعيًا للماضي في شكل جديد[1].

يقول درويش في "بيروت فجرًا" يبين فيها ما حدث لبيروت أثناء الحصار من تدمير وهتك للأعراض وقتل للأطفال، مبينًا بطريقة «السرد» حال المدينة، مصوِّرًا تفاصيل الحياة اليومية.

---

(١) د. مصطفى ناصف: مصدر سابق، ص ٢٦٢.

بيروت/ فجرًا:

يطلق البحر الرصاص على النوافذ، يفتح العصفور أغنية
مبكرة. يطير جارنا رف الحمام إلى الدخان يموت من لا
يستطيع الركض في الطرقات.. قلبي قطعة من برتقال
يابس.. أهدي إلي جاري الجريدة كي يفتش عن أقاربه
أعزيه غدًا، أمشي لأبحث عن كنوز الماء في قبو البناية
أشتهي جسدًا يضيء البار والغابات.. يا "جيم" اقتليني
واقتليني واقتليني.
يدخل الطيران أفكاري ويقصفها..
فيقتل تسع عشرة طفلة
يتوقف العصفور عن إنشاده
عادية ساعاتنا.. عادية،
لولا صهيل الجنس في ساقيك يا "جيم" الجنون
والموت يأتينا بكل سلاحه الجوي والبري والبحري
ألف قذيفة أخرى ولا يتقدم الأعداء شبرًا واحدًا
يا فجر بيروت الطويلا
عجِّل قليلا
عجِّل لأعرف جيدًا:
إن كنت حيًا أم قتيلا[1]

كان هذا فجر بيروت، ثم يأتي وقت الظهيرة فيها فيحدثنا الشاعر عما جرى للمدينة ساعة الظهيرة موضحًا موقف العرب تجاهها، وموقف أمريكا الحاقد على الأمة العربية ممثلة بقنابلها الحارقة وتخطيطها الحاقد..

(١) محمود درويش/ مديح الظل العالي، مصدر سابق، ص ٥٤ وما بعدها.



obeikandl.com

بيروت/ ظهراً.

يستمر الفجر منذ الفجر

تتكسر السماء على رغيف الخبز

ينكسر الهواء على رؤوس الناس من عبء الدخان، ولا جديد

لدى العروبة

بعد شهر يلتقي كل الملوك، بكل أنواع الملوك من العقيد

إلى الشهيد، ليبحثوا خطر اليهود على وجود الله[1].

أما الآن فالأحوال هادئة تمامًا مثلما كانت،

وأن الموت يأتينا بكل سلاحه الجوي والبري والبحري.

مليون انفجار في المدينة

.....

عرايا نحن، لا أفق يغطينا، ولا قبر يوارينا

ويا.. يا يوم بيروت المكسّر في الظهيره

عجّل قليلا

عجّل لنعرف أين صرختنا الأخيره

أما بيروت وقت العصر فيحدثنا محمود درويش عن المأساة في هذه اللحظات قائلاً:

بيروت/ عصراً:

تكثر الحشرات

تزداد الرطوبة

ترتخي العضلات

---

(١) على الرغم من الدلالة الواضحة على خطر اليهود، فما كان يليق بالشاعر أن يكتب هذا السطر الشعري على هذا النحو. وقد ورد أيضًا في القصيدة قوله: «من أدمي جبين الله»!!!

نشعر أن للأرض احتقانًا في مفاصلنا

فنصرخ: أيها البطل انكسر فينا

ويصور الشاعر حالة بيروت في المساء طوال أيام الحصار، فيقول:

**مساء/ فوق بيروت:**

الرخام

ينز دمًا، ويذبحني الحمامُ

إلى من أرفع الكلمات سقفًا

وهذي الأرض يحملها الغمام؟

ويرحل، حين يرحل، نحو تيهي

أحدق في المسدس، وهو ملقى

على طرف السرير، وأشتهيه.

وينقذني، وينقذني الكلام

ظلام كل ما حولي.. ظلام

لاحظ السطر الأخير تجد أن «الظلام» يمثل طرفي الخيط، فهو البدء وإليه المنتهى، فالظلام ممتدٌ طوال الأربع والعشرين ساعة!

وبيروت ليلاً وفجرًا وظهرًا وعصرًا يقدمها لنا الشاعر في قصيدته "مديح الظل العالي" وكأنها مسرحية تمثَّل على خشبة المسرح، والشخوص يقومون بدورهم على أكمل وجه، الظلام في كل مكان.. القتل وبريق الدم يضيء المسرح.. النجدة.. الاستغاثة.. جمع غفير من المتفرجين الحضور.. يشربون ويأكلون.. يهرجون يقهقهون[1].

ومحمود درويش يذكّر بالمذابح السابقة.. ويبين بأن هذا الحيل الدموي وهذا الجرح النازف هو تتمة لما حدث في كفر قاسم، ودير ياسين، وبحر البقر، وصبرا، وشاتيلا، وقانا، و.... إلخ، فيقول:

---

(١) د. إبراهيم الوحش: مأساة بيروت، مصدر سابق، ص ٢٩٢ .



obeikandl.com

سرقت دموعنا يا ذئب

تقتلني وتدخل جثتي وتبيعها

اخرج قليلاً من دمي حتى يراك الليل أكثر حلكة

واخرج لكي نمشي لمائدة التفاوض، واضحين،

كما الحقيقة

قاتلاً يدلي بسكين

وقتلي

يدلون بالأسماء

«صبرا»

«كفر قاسم»

«دير ياسين»

«شاتيلا»

ويقول درويش أيضًا موضحًا قسوة وصلافة جنود الاحتلال، ومدى حقدهم حتى على الأموات في قبورهم.. يريدون أن يقتلعوا الجذور من الأرض، ولكن جذورنا قوية راسخة في باطن الأرض الطيبة التي تثبت الشهداء على الدوام.

**بيروت/ ليلاً:**

يقصفون مقابر الشهداء، يدثرون بالفولاذ، يضجعون مع فتياتهم، يتزوجون، يطلقون، يسافرون، ويولدون،

ويعملون، ويقطعون العمر في دبابة..

أهلاً وسهلا.

يخرج الشهداء من أشجارهم، يتفقدون صفارهم، يتجولون على السواحل

يرصدون الحلم والرؤيا، يغطون السماء بفائض الألوان،

يفترشون موقعهم،



obeikandl.com

يسمون الجزيرة، يغسلون الماء، ثم يطرزون حصارنا

قطنًا ونخلا

درويش يذكرنا بالوحدة في كل مقطع من مقاطع قصيدته.. فأبناء بيروت قاتلوا وحدهم.. نعم، ولا شك أن الشاعر يبكي من خلال أبياته بكاء مرًا .. وكيف لا يبكي وهو يرى الأهل يُقتلون، والأطفال يُذبحون، والنساء تُهتك أعراضهن!!.. الكل يرى ويسمع ولا يبدي حراكًا بل يبتسم ابتسامة صفراء دلالة الذل.. ويتابع الشاعر قوله:

بيروت/ فجرا

بيروت/ ظهرا

بيروت/ ليلا

يخرج الفاشي من جسد الضحيه

يرتدي فصلاً من التلمود: اقتل - كي تكون

عشرين قرنًا كان ينتظر الجنون

عشرين قرنًا كان سفاحًا معمَّم

عشرين قرنًا كان يبكي.. كان يبكي

كان يخفي سيفه في دمعته

أو كان يحشو بالدموع البندقيه

عشرين قرنًا كان ينتظر الفلسطيني في طرف المخيم

عشرين قرنًا كان يعلم

أن البكاء سلاحه.

هكذا عاد الشاعر إلى نصوص التلمود التي تحث على القتل، كما عاد إلى التاريخ من خلال عشرين قرنًا من الزمان التي تفضح أفعالهم وجرائمهم، هذا وقد أبدع الشاعر في أبياته الشعرية حول صبرا، التي شبهها بالفتاة، إذ نجد أنه قدم لنا شرحًا مفصلاً عن صبرا وعن رحيل المقاتلين.. ووصف منظر الوداع حين ودعتهم صبرا .. وهي تسألهم.. هل ترجعون؟.. بكت صبرا .. ذرفت الدم والدموع.. بقيت صبرا واقفة



obeikandl.com

صامدة.. تنظر إلى الأبطال الراحلين، اسودت الدنيا في عينيها.. وسافرت معهم بكل جوارحها.. ولكنها استيقظت على صوت يضربها يقطع ثدييها.. يأكل لحمها.. ينهش بمخالبه جسدها الطاهر.. يرمي عظامها لجوارح الطير، وكل ذي مخلب، ولكن صبرا ستبقى هوية لكل فلسطيني. يقول:

صبرا – فتاة نائمة

رحل الرجال إلى الرحيل

والحرب نامت ليلتين صغيرتين

وقدمت بيروت طاعتها، وصارت عاصمة

ليل طويل

يرصد الأحلام في صبرا،

وصبرا – نائمة

صبرا – بقايا الكف في جسد قتيل

ودَّعت فرسانها وزمانها

واستسلمت للنوم من تعب، ومن عرب رموها خلفهم

صبرا – وما ينس الجنود الراحلون من الجليل

لا تشتري وتبيع إلا صمتها

من أجل ورد للضفيرة

صبرا – تغني نصفها المفقود بين البحر والحرب الأخيرة

لِمَ ترحلون؟!

وتتركون نساءكم في بطن ليل من جديد؟!

لِمَ ترحلون؟!

وتعلقون مساءكم

فوق المخيم والنشيد



obeikandl.com

صبرا – تغطي صدرها العاري بأغنية الوداع

وتعدُّ كفيها وتخطئ

حين لا تجد الذراع

كم مرة ستسافرون؟!

ولأي حلم

وإذا رجعتم ذات يوم

فلأي منفى ترجعون،

لأي منفى ترجعون؟

صبرا – تمزق صدرها المكشوف

كم مرة

تتفتح الزهرة

كم مرة

ستساور الثورة؟

صبرا – تخاف الليل تسنده لركبتها

تغطيه بكحل عيونها، تبكي لتلهيه:

رحلوا وما قالوا

شيئًا عن العودة

ذبلوا وما مالوا

عن جمرة الوردة!

عادوا وما عادوا

لبداية الرحلة

والعمر أولاد



obeikandl.com

هربوا من القُبلة

لا، ليس لي منفى

لأقول لي وطن

الله، يا زمن!

صبرا تنام، وخنجر الفاشي يصحو

صبرا تنادي – من تنادي

كل هذا الليل لي، والليل ملح

يقطع الفاشي ثدييها – يقل الليل

يرقص حول خنجره، ويلعقه، يغني لانتصار الأرز موالا،

ويمحو

في هدوء.. في هدوء لحمها عن عظمها

ويمدد الأعضاء فوق الطاولة

ويواصل الفاشي رقصته ويضحك للعيون الماثلة

ويجن من فرح، وصبرا لم تعد جسدا.

ويأتي الشاعر إلى نهاية قصيدته الطويلة، والتي تعدُّ من درر الشعر الحديث، ونجده يودع بيروت وأهل لبنان، ويذكر مواقفهم الطيبة مع من رحلوا عن بيروت، هذا النصّ المليء بالقضايا السياسية، والملون بالصور البلاغية والتشابيه الرائعة، فضلاً عن الرموز الموحية.

يا أهل لبنان.. الوداعا

شكرًا لكل شجيرة حملت دمي

لتضيء للفقراء عيد الخبز

أو لتضيء للمحتل وجهي، كي يرى وجهي



obeikandl.com

ويرتدي الخداعا

نلاحظ في هذا المقطع النفس الملتاعة على فراق بيروت، ونشم فيه رائحة التحدي والصمود.

وهكذا قدم لنا الشاعر محمود درويش وثيقة تاريخية سياسية أدبية في قصيدة "مديح الظل العالي" لتعطينا صورة واضحة وحقيقية عن مجريات الحرب عام ١٩٨٢ في بيروت، وحصارها المرير حيث تلقي هذه المطولة الشعرية الضوء على الأحداث السياسية، والأوضاع المتردية في الوطن العربي وجعلنا نشاهد ملحمة البطولة والصمود في بيروت وكأننا نعيش مأساتها، وبالفعل كانت أبيات القصيدة مؤثرة موجعة بصورها وألفاظها؛ لأنها تعالج وضعًا حزينًا لشعب بطل لا يهزم ويلفت القصيدة شأوًا عاليًا من الجودة؛ لأنها تصدر عن إنسان عاش الحصار، وتكبَّد معاناته وآلامه، وكان أحد الذين عاشوا في بيروت طيلة أيام الحصار وأحد المغادرين منها في رحلة العذاب التي لا تنتهي، وقد استخدم الشاعر الرمز والإيحاء في كثير من المواضع، ونبه مباشرة على الأخطار المحدقة بالوطن العربي ودعا إلى الصحوة من الكابوس، وإلا سيسحقنا من لا يرحم!

كتب محمود درويش قصيدة رائعة تدور حول الخروج الفلسطيني الكبير من بيروت البطولة إلى أزمنة التشتت في العالم، هذا الجرح الكبير الذي حل بجسد الثورة الفلسطينية، يصفه في قصيدته "بقايا كلام على مقعدين" ولا شك في أن هذه السطور تحمل عناوين مختلفة تمثل الوضع المأساوي الذي يعيشه الفلسطينيون في بيروت وفي كل مكان، وصف دقيق للمأساة.. نحيب وبكاء.. صراخ وعويل.. صواريخ وقنابل.. حصار وإراقة دماء.. خروج وفرقة، وامتصماه، ولكن أين هو الآن منا، وأين نحن الآن منه يقول:

سنخرج

قلنا: سنخرج

قلنا لكم: سوف نخرج منا قليلا، سنخرج منا

إلى هامش أبيض نتأمل معنى الدخول ومعنى الخروج

سنخرج للتو.. آب أبونا الذي كان فينا إلى أمه الكلمة

وقلنا:

سنخرج فلتفتحوا خطوة لدم فاض عنا

وغطى مدافعكم، أوقفوا الطائرات المغيرة خمس دقائق أخرى

وكفوا عن القصف، برا وبحرا، ثلاث دقائق أخرى

لكي يخرج الخارجون، وكي يدخل الداخلون

سنخرج.. قلنا: سنخرج

فلتتركوا حيّزًا للوداع الأخير، سلام علينا، سلام علينا

سنجمع أعضاءنا في الحقائب، فلتوقفوا القصف خمس دقائق

سنخرج

قلنا: سنخرج منا قليلا.. سنخرج منا

رمينا على حافة البحر ساحل أجسادنا، وانكسرنا

كعاصفة النخل، حين انتصرنا عليكم، وحين انتصرنا علينا

وزدنا الشوارع ظلاً يسمي المدينة شكلاً لمعنى

مهما رحلنا، ومهما ابتعدنا[1]

يلاحظ تداخل الضمائر في المقطع في جمل كثيرة «سوف نخرج منا»، «آب أبونا الذي كان فينا»، «سلام علينا»، «سنجمع أعضاءنا»، كما يلاحظ الإلحاح والتكرار في قوله: «سنخرج»، والتي يشتم منها رائحة التحدي والصمود.

ويؤكد الشاعر بأن المقاومة ستخرج إن كان هذا يريحكم ويريح كل خائن وعميل، ولكنه يطلب فرصة صغيرة ولمدة دقائق معدودة، حتى تحزم الأمتعة، وتهاجر الموجات المقاتلة عن بيروت، وتدخل قوات التدخل السريع والمارينز.. يخرج الأهل والأحبة والمسلمون، ويدخل مكانهم العملاء والخائنون، والمارقون ويضيف قائلاً:

سنخرج، قلنا: سنخرج

---

(١) المجلة – العدد ٢٦٩/ ٣- ٩ إبريل "نيسان" ١٩٨٥، رجب ١٤٠٥هـ – ص ٨٣ هي أغنية محمود درويش – ص ٧- ٨، دار الكلمةللنشر – بيروت ١٩٨٦ ط٢.

فلتدخلوا في أريحا الجديدة سبع ليال قصار فقط

فلن تجدوا طفلة تسرقون ضفيرتها، أو فتى تسرقون فراشاته

ولن تجدوا حائطًا تكتبون عليه أوامر تنهي عن الزنزلخت وعنا

ولن تجدوا جثة تحفرون عليها مزامير رحلتكم في الخرافة

ولن تجدوا شرفة كي تطلوا على الأبيض المتوسط فينا

ولن تجدوا شارعًا للحراسة

ولن تجدوا ما يدل عليكم، ولن تجدوا ما يدل علينا،

خرجنا قبيل الخروج، فلا ترفعوا شارة النصر فوق الجثث

هنا نحن، نحن هناك، ولسنا هناك، ولسنا هنا.

هنا نحن تحت العناصر، نحن دم كامن في الهواء الذي تذبحونه

سنخرج

قلنا: سنخرج فلتقصفوا ظلنا .. ظلنا

خذوه أسيرًا إلى أمه الأرض أو علقوه على شجر الكستنا

تكونون أو لا نكون، ادخلوا وهمكم، واحرثوا وهمنا

سنخرج من كل بيت رآنا نسمّر دبابه قربه أو علينا

سنخرج من كل متر، ومن كل يوم، كما يخر البدو منا

سنخرج

قلنا سنخرج منا قليلاً إلينا، سنخرج منا

إلى بقعة البحر – أبيض أزرق – كنا هناك، وكنا هنا

يدل علينا الفياب الحديدي – بيروت كانت هناك وكانت هنا

تسيطر على نفسية الشاعر الأحاسيس الحزينة اليائسة من الأمة العربية التي لا تحرك ساكنًا، فنراه ساخطًا ناقمًا على أصحاب الخطب والحفلات والقصائد الجوفاء، وهم في داخلهم يتمنون خروج المقاومة سعداء بتشتتهم في الفيافي العربية!!

ولمحمود درويش قصائد تحكي لحظة بلحظة مأساة الفلسطينيين في لبنان نذكر من تلك القصائد، ذلك الوصف الرائع لتل الزعتر من خلال قصيدته "أحمد الزعتر"، والتي يرسم فيها صورة للمناضل الفلسطيني مهما اشتد الحصار عليه وتكالبت عليه كلاب البحر وأعداء العروبة، فهو يمثل الصمود والثورية النموذجية في المقاومة، وفي هذه القصيدة نرى تجسيدًا للنضال الفلسطيني في الأرض المحتلة وفي أي مكان.

وهنا نجد التزامًا من الشاعر تجاه وطنه بكل ما فيه من أبعاد قومية وإنسانية، والشاعر حين يقول أحمد العربي/ أحمد الزعتر فهو وجه من وجوه الأمة العربية وإن شئت قل من وجوه الأمة الإسلامية عامة، وأن الرمز "أحمد" يشير ضمن ما يشير إليه إلى النبي (ﷺ)، فأحمد اسم من أسمائه الشريفة، ومن ثم ترمز القصيدة للأمة الإسلامية، ممثلة في تخيُّر درويش للاسم.

وأحمد الزعتر هو كل عربي شريف مطعون في ظهره من أولئك الذين تهاونوا وتخاذلوا عن نصرته، بل وقفوا مشجعين قتله والتمثيل به، وهو رغم كل ذلك صامد يتحدى؛ لأنه ليس وحيدًا.. فهو يحب الأرض والوطن.. ومن يحلم بالوطن لا يكون وحيدًا.. يقول محمود درويش في قصيدته "أحمد الزعتر" والتي يصف فيها مأساة تل الزعتر، المخيم الذي سُوِّي بالأرض، وقتل جميع من فيه على أيدي كتائب الموارنة كما سبق أن ذكرنا.

ليدين من حجر وزعتر
هذا النشيد.. لأحمد المنسي بين فراشتين
مضت الغيوم وشرَّدتني
ورمت معطفها الجبال وخبَّأتني
نازلاً من نخلة الجرح القديم إلى تفاصيل البلاد
وكانت السنة انفصال البحر عن مدن الرماد
وكنت وحدي
ثم وحدي[1]

---

(١) محمود درويش - الديوان - المجلد الثاني، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٧٧م، ص ٤٦٩- ٤٧٠ .

نلاحظ هنا أن الشاعر يبين لنا أن أحمد الزعتر يتألم لأنه وحيد، ولذا فقط كان التوجع:

آه يا وحدي؟ وأحمد

كان اغتراب البحر بين رصاصتين

مخيمًا ينمو، وينجب زعترًا ومقاتلين

وساعدًا يشتد في النسيان

ذاكرة تجيء من القطارات التي تمضي

وأرصفة بلا مستقبلين وياسمين

كان اكتشاف الذات في المرياتِ

أو في المشهد البحري

في ليل الزنازين الشقيقة

في العلاقات السريعة

والسؤال عن الحقيقة

في كل شيء كان أحمد يلتقي بنقيضه

عشرين عامًا كان يسأل

عشرين عامًا كان يرحل

عشرين عامًا لم تلده أمه إلا دقائق في أناء الموز

وانسحبت

لاحظ الاستعارة في جملة «اغتراب البحر» في مطلع المقطع وما تحمله من دلالة أن البحر سيصبح مفترًا عندما يحمل المهاجرين.

الشاعر مشبع بنبرة غنائية حالمة، يمكن أن نعتبره صوت الشاعر، لكن هديره يعلوا أحيانًا، وهو يحدد مدى عنف الضياع الفلسطيني وعمقه، فيجمع التفاصيل الدالة على ذلك (مخيمًا يتمو - ساعدًا يشتد في النسيان - ذاكرة تجيء - قطارات تمضي -



obeikandl.com

زنازين شقيقة تأسر) هذه التفاصيل بكثافتها وتوترها وتقاطعها وتشابكها تتجه نحو مؤشر ينبئ بحدث محدد، وهو ولادة مسيح الرحلة "أحمد الزعتر" أو نبيها الجديد، ومن خلال اختلاف الأزمنة (الماضي/ الحالي/ المستقبل) يولد "أحمد" مطموس الملامح: لا أب له، لا وطن له ولا هوية إنه رمز الفلسطيني الذي سيأتي من النسيان، ويطلع من أزمنة القهر بلا وطن يأويه.

ثم ترى الأم التي ولدت ثم انسحبت، تُرى هل هي فلسطين أم الأمة العربية؟ تُرى عما كان يسأل، وهل وجد جوابًا؟

صور الشاعر الإنسان الفلسطيني تائهًا في كل مكان.. وعلى وجهه تساؤلات متى ينتهي هذا الترحال؟ متى العودة إلى الوطن؟ لماذا يقف الناس متفرجين؟ وأين براميل النفط العربي؟

يبحث هذا الشاب عن هوية.. وطن.. أرض.. بيت

يريد هوية فيصاب بالبركان

سافرت الغيوم وشردتني

ورمت مماطفها الجبال وخبأتني

أنا أحمد العربي- قال

أنا الرصاصُ البرتقالُ الذكرياتُ

وجدتُ نفسي قرب نفسي

فابتعدت عن الندى والمشهد البحري

تل الزعتر الخيمة

وأنا البلاد، وقد أتت

وتقمصتني

وأنا الذهاب المستمر إلى البلاد

وجدت نفسي ملء نفسي

راح أحمد يلتقي بضلوعه ويديه

كان الخطوة – النجمة

ومن المحيط إلى الخليج، من الخليج إلى المحيط

كانوا يُعدُّون الرماح

وأحمد العربي يصعد كي يرى حيفا

ويقفز

أحمد الآن الرهينة

تركت شوارعَها المدينة

وأتت إليه لتقتله!

ومن الخليج إلى المحيط، من المحيط إلى الخليج

كانوا يُعدُّون الجنازة

وانتخاب المقصلة

الشاعر يوضح الدور المتخاذل للأمة العربية.. إذ وقفت مكتوفة الأيدي وهي ترى مخيم الزعتر يدمر يقتل فيه من الأبرياء.. من أطفال وشيوخ ونساء!!

يلاحظ في المقطع السابق أن ولادة أحمد الزعتر / الفلسطيني/ مجهول الهوية، بدأت تكتسب لونًا من ألوان التعريف لكنه تعريف باهت ضبابي وغير واضح.

* أنا أحمد العربي – قال –

ماضي البطل: هو ماضي الصراعات والعنف داخل أرض البرتقال/ فلسطين.

* أنا الرصاص البرتقال الذكريات

حاضره: مؤلم يتلخص في اللجوء المصيري المحتوم

* أنا البلاد وقد أتت وتقمصتني

مستقبله: لحظات الطموح والعمل على حسم التناقض،أي اغتراب الأنا عن الوطن/ الأم.

* أنا الذهاب المستمر إلى البلاد

لاحظ جدل العلاقة بين ذاكرة (الماضي)، والرؤيا (المستقبل).

ثم لاحظ في نهاية المقطع الاتجاه العكسي من كل العرب تجاه البطل/ أحمد

« من الخليج إلى المحيط. من المحيط إلى الخليج

ماذا يفعل أهل هذه البلاد؟ إنهم «كانوا يعدون الرماح»

يتابع درويش قصيدته إذ يقول:

أنا أحمد العربي.. فليأت الحصار

جسدي هو الأسوار.. فليأت الحصار

وأنا حدود النار.. فليأت الحصار

وأنا أحاصركم..

أحاصركم

وصدري باب كل الناس.. فليأت الحصار

لم تأت أغنيتي لترسم أحمد الكحليَّ في الخندق

الذكريات وراء ظهري، وهو يوم الشمس والزنبق

تلمح في الأسطر السابقة التحدي والإصرار على الاستمرار في النضال والمقاومة، آية ذلك تكرار مفردة "الحصار" لأكثر من مرة.. والشاعر يبين لنا أن مخيم تل الزعتر هو الأصل والشرف ما دام الجميع غير مبالين، ويكشف عن مخزون التفاصيل، ويوضح الخيانات المتتالية:

يا أيها الولد الموزَّع بين نافذتين

لا تتبادلان رسائلي

قاوم

إن التشابه للرمال.. وأنت للأزرق

وأعدُّ أضلاعي فيهرب من يدي بردي



obeikandl.com

وتتركني ضفاف النيل مبتعدًا

وأبحث عن حدود أصابعي

فأرى العواصم كلها زَبَدًا ..

كل المدن والعواصم العربية أصبحت هباء لا فائدة منها، فالنيل/ مصر، يبتعد، والعواصم (رمز السلطة) هي الأخرى زَبَدًا لا فائدة منها، ولاحظ صيغة الجمع، والزعتر يقاتل وحده.. يجلس في الخندق وحيدًا .. قطع الأمل من كل أولئك الناس الذين خيبوا ظنه، يتابع الشاعر قوله:

وأحمد الزعتر يفرك الساعات في الخندق

لم تأت أغنيتي لترسم أحمد المحروق بالأزرق

هو أحمد الكونيُّ في هذا الصفيح الضيق

المتمزق الحالم

وهو الرصاص البرتقالي.. البنفسجية الرصاصية

وهو اندلاع ظهيرة حاسم

في يوم حرية

يا أيها الولد المكرَّس للندى

قاوم

يا أيها البلد – المسدس في دمي

قاوم

الآن أُكمل فيك أغنيتي

وأذهب في حصارك

والآن أكمل أسئلتي

وأولد من غبارك

فاذهب إلى قلبي تجد شعبي

شعوبًا في انفجارك.

يا أحمد العربي؟

لم يكذب عليَّ الحب

لكن كلما جاء المساء

امتصني جرسٌ بعيدٌ

والتجأت إلى نزيفي كي أُحدِّد صورتي

يا أحمد العربي

لم أغسل دمي من خبز أعدائي

ولكن كلما مرت خطاي على طريق

فرَّت الطرق البعيدة والقريبة

هذه القصيدة ترسم لنا كل ما جرى في تل الزعتر.. وهي تتحدث من داخل المخيم.. الذي أصبح مثالاً يحتذى في كل مكان للجبروت الإنساني والقهر، والذل العربي.. فالزعتر ظاهرة يندرج عليها عدة ظواهر.. مذبحة تبعتها عدة مذابح لأحمد الزعتر رمز الصمود النضالي من جانب، ورمز القهر والخيانة من جانب آخر، يقول درويش:

كلما آخيت عاصمة رمتني بالحقيبة

فالتجأت إلى رصيف الحلم والأشعار

كم أمشي إلى حلمي فتسبقني الخناجر

لاحظ في الأسطر السابقة أن كل الأفعال منبثقة من الذات؛ تهدف لفعل، لكنها – للأسف – موجهة إليها!!! كما تشير هذه الأسطر إلى دواخل الذات، فهي أشبه ما تكون بمحاورة داخلية، فهي تؤكد على عنف الصراع الداخلي، وتكشف (غربة) البطل وانشطاره بين الذات/ الوطن (وأنا البلاد وقد أتت وتقمصتني)، ويبدو أنه لا حسم إلا "بالمقاومة"، وهي في الوقت نفسه تفضح فعل الطفاة وتاريخهم السلحلوي القمعي «كم أمشي إلى حلمي فتسبقني الخناجر – كانوا يعدون الرماح، وانتخاب المقصلة».

ويستأنف درويش ملحمته النضالية، فيقول:

آه من حلمي ومن روما

جميل أنت في المنفى

قتيل أنت في روما

وحيفا من هنا بدأت

وأحمد سلَّم الكرمل

وبسملة الندى والزعتر البلدي والمنزل

لا تسرقوه من السنونو

لا تأخذوه من الندى

كتبت مراثيها العيون

وتركت قلبي للصدى

لا تسرقوه من الأبد

وتبعثروه على الصليب

فهو الخريطة والجسد

لا تأخذوه من الحمام

لا ترسلوه إلى الوظيفه

لا ترسموا دمه وسامْ

فهو البنفسج في قذيفه

صاعدًا نحو التئام الحلم

تتخذ التفاصيل الرديئة شكل كُمثرى

وتنفصل البلاد عن المكاتب

والخيول عن الحقائب

للحصى عَرَقٌ



obeikandl.com

أقبّل صمت هذا الملح

أعطي خطبة الليمون لليمون

أوقد شمعتي من جرحي المفتوح للأزهار

والسمك المجفف..

للحصى عَرَق ومرآة

ويمضي الشاعر واصفًا بطولة مخيم تل الزعتر من خلال الهموم الذاتية التي تقتحم القصيدة في شكل ومضات أو تجليات، وتفجرات تنبع من مخزون الذاكرة، ومن الذاتي خلال قوله: (زوجة تقطع البصل)، والجمعي (مطاردات رجال الأمن)، تكتسب الكلمات شاعريتها ويصبح الشعر موجودًا في كل شيء:

وللحطاب قلب يمامة

أنساكِ أحيانًا لينساني رجال الأمن

يا امرأتي الجميلة تقطعين القلب والبصلْ

الطريَّ وتذهبين إلى البنفسج

فاذكريني قبل أن أنسى يديّ

وصاعدًا نحو التئام الحلم

تتكمش المقاعد تحت أشجاري وظلّك..

يختفي المتسلقون على جراحك كالذباب الموسميّ

ويختفي المتفرجون على جراحك

فاذكريني قبل أن أنسى يديّ!

وللفراشات اجتهادي

والصخور رسائلي في الأرض

لا طروادة بيتي

ولا مسّادة وقتي

وأصعد من جفاف الخبز والماء المصادر

من حصان ضاع في درب المطار

ومن هواء البحر أصعد

من شظايا أدمنَت جسدي

وأصعد من عيون القادمين إلى غروب السهلِ

أصعد من صناديق الخضار

وقوة الأشياء أصعدُ

أنتمي لسمائي الأولى وللفقراء في كل الأزقة

ينشدون.. صامدون

وصامدون.. وصامدون

والمخيم كله أحمد.. دمشق.. الحجاز.. كل المدن العربية هي أحمد العربي.

كان المخيم جسم أحمد

كانت دمشق جنون أحمد

كان الحجاز ظلال أحمد

صار الحصار مرور أحمد فوق أفئدة الملايين

الأسيرة

صار الحصار هجوم أحمد

والبحر طلقته الأخيرة!

ويا خُضرُ كلّ الريح

يا أسبوع سُكّرْ!

يا اسم العيون ويا رخاميّ الصدى

يا أحمد المولود من حجر وزعتر



obeikandl.com

سلقول: لا

ستقول: لا

جلدي عباءة كل فلاح سيأتي من حقول التبغ

كي يلفي المواصم

وتقول: لا

جسدي بيان القادمين من الصناعات الخفيفة

وتردد.. والملاحم

نحو اقتحام المرحله

وتقول: لا..

ويدي تحيّاتُ الزهور وقنبله

مرفوعة كالواجب اليومي ضد المرحله

وتقول: لا..

يا أيها الجسد المضرج بالسفوح

وبالشمس المقبله

وتقول: لا.. يا أيها الجسد الذي يتزوج الأمواج

فوق المقصله..

يتابع درويش قصيدته أحمد الزعتر وهي من روائع قصائده الملحمية؛ لأنه بأسلوبه الشعري وضح لنا صورة أحمد الزعتر من حيث القهر والحصار والخيانات العربية.. ثم المقاومة والصمود للفدائيين.

ومن الشعراء الذين أثرت فيهم مأساة لبنان حتى الموت، الشاعر الشهيد على فودة هذا الفلسطيني الذي كتب بالدم عن بيروت وظل يناضل فيها حتى الموت لقد حفرت المأساة أعماقه، منذ رحل من بلدته حيفا متنقلاً بين المدن العربية حتى حل على مدينة بيروت ضيفًا، هذا المكافح العنيد لم ينس بلدته وعاداته، بل بقي يتذكر كل شيء حتى



obeikandi.com

الخبز الذي كان يأكله في بلدته، ظل يقاتل بقلمه حتى استشهد في بيروت برصاص حاقد مسموم، ومن شعره قصيدة بعنوان "أنت الجرح وأنت السكين، وأنا القاتل والمقتول!"، لاحظ تركيب العنوان "فالجرح هو السكين" . و"القاتل هو نفسه المقتول"، وهو بهذا يشير إلى المعارك (العربية/ العربية) على الأراضي اللبنانية فيقول:

متأخرًا جئت..

مساء كان الوقت، وموعدنا كان قبيل طلوع الفجر

وداعًا، لمن سوف يأتون من وقتنا صامتين،

ومن دمنا واقفين، لندخل[1]

أما قصيدته "آن للشاعر أن يقتل نفسه" فيقول فيها:

آن للشاعر أن يقتل نفسه

لا لشيء، بل لكي يقتل نفسه

قال: لن أسمح للنحلة أن تمتصني

قال: لن أسمح للمرأة أن تتركني حيًا على ركبتها

من ثلاثين سنة

يكتب الشعر وينساني..

وقعنا عن جميع الأحصنة

ووجدنا الملح في حبة قمح، وهو ينساني، خسرنا الأمكنه

وهو ينساني. أنا الآخر فيه

آن للشاعر أن يخرج للأبد

ليس قلبي من ورق

آن لي أن أفترق

عن مراياي، وعن شعب الورق

---

(١) الخليج الثقافي - ملحق العدد ٢٣٢ - الملحق الثقافي - ٢٣ أغسطس ١٩٨٢م.



obeikandl.com

آن للنحلة أن تخرج من وردتها نحو الشفق

آن للوردة أن تخرج من شوكتها كي تحترق[1]

لاحظ الاستعارة في «شعب الورق» الشاعر يتمنى أن يفترق عن الشعوب العربية التي أصابها الصمت تمامًا كأوراق القمم العربية، وقد طال صمتها!!

ويتابع علي فودة أبياته مصورًا حالة التشرد والمأساة التي يمر بها الإنسان الفلسطيني وهنا يُرمز له بالعصفور الذي يهرب من البرد إلى مكان دافئ، ولكنه لا يجد إلا الثلج، فالقتل يطارده ولا مفر له سوى الصمود أو العودة إلى الأمطار والحرب.

وعلي فودة يخاطب بيروت وكل المدن المصابة، وكأنها امرأة، وحواره مع سيدة الماء حوار جميل، بل نجد أن الصور البلاغية "الاستعارات والكنايات والتشابيه" تملأ أبياته الشعرية، فهو يكتب من أعماق قلبه بصدق لا تكلف عنده ولا تصنع فهو ابن المأساة، الصعلوك والفجري الذي آل على نفسه أن يعيش آمنًا بعيدًا عن الخطر، وفضل الموت الشريف على العيش الذليل[2].

لم يجد العشّ الدافئ

فاجأه الثلج

فعاد إلى الأمطار

ماذا يملك في تلك اللحظة عصفور الدهشة

غير العودة..

أين هي النار؟

فوق النخلة

أم بين أكاليل الغار؟

لكي يوجعني أيتها الوردة ما يوجعك، فلا تبكي..

لست بقاتلك الأول

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) د. إبراهيم الوحش: مأساة بيروت، ص ٣٠٥ .

لست بقاتلتي الأولى

يؤكد الشاعر بأن الألم واحد.. بيروت.. أيتها الوردة، فأنا لست القاتل الأول، وأنت لست القاتلة الأولى.. أي أن هناك الكثير من جرب مبضعه في هذا الشعب المشرد فلا تحزني أيتها الجميلة، فالقاتل في كل مرة هو المجهول، مع أن الكل يعلمه ويعرفه!!

أنت الجرح، وأنت السكين

وأنا القاتل، والمقتول

من قاتلنا أيتها الوردة؟

قاتلنا كان المجهول!

ربما أراد الشاعر أن يخفي حقيقة ما حدث، وأن القتلة هم أبناء يعرب فكني عن ذلك بقوله: «قاتلنا كان المجهول»، والملاحظ سيطرة الحروف اللينة على المقطع، والتي تكررت نحو سبع مرات عبر أربعة أسطر شعرية إنما توحي بالصرخة الأليمة من جراء ما حدث له ولإخوانه.

وإذا كان هؤلاء الشعراء محمود درويش، والشهيد علي فودة، وغيرهم تناولوا المأساة من داخلها وعاينوها وعايشوها لحظة بلحظة وصوَّروا تفاصيلها ودقائقها، فيكون السؤال ما موقف الشعراء الفلسطينيين في داخل الأرض المحتلة؟ وهو ما ستجيب عنه الصفحات التالية.

* * *

obeikandl.com

# الفصل الثاني

## تأثير المأساة على الشعراء الفلسطينيين في الأرض المحتلة

obeikandl.com

obeikandl.com

كان لمأساة لبنان أكبر الأثر في فلسطين المحتلة، فأهل فلسطين شعروا بها لأنهم مروا بنفس التجربة، جرح بيروت هو جرح القدس، وما عانته صيدا عانت منه الجليل والخليل، شعراء فلسطين حزنوا لما أصاب لبنان من دمار وقتل وتشريد، وعبروا عن قلقهم وحزنهم، لأن لبنان عزيز على قلوبهم كما هي فلسطين في القلب.

ومن الشعراء الذين كتبوا عن مأساة لبنان سميح القاسم، وعلى الخليلي، ومحمد شديد، وهؤلاء جميعًا يعيشون داخل الوطن المحتل، يقاومون الاحتلال بشعرهم الوطني الصادق، الذي يدعو إلى طرد المحتل، ويستنهض الهمم والعزائم للثورة والجهاد.. أما سميح القاسم شاعر فلسطين، فقد هزته المأساة وكتب عنها، كما كتب عن حبيبته فلسطين التي مازالت الهاجس عنده وعند كل فلسطيني يؤمن بعدالة قضيته، تفتقت شاعرية سميح القاسم وعاطفته أثناء اجتياح لبنان عام ١٩٨٢م؛ لأن الجرح يقض المضجع والمصيبة واحدة، وسميح القاسم يعيشها في فلسطين، وهو يقول في قصيدته القصيدة المفخخة، مخاطبا أهل فلسطين منبها لخطر اليهود مذكرا بالأجداد والآباء والجذور، وخطابه لا يقتصر على أهل فلسطين بل يشمل الأمة العربية جمعاء لكثرة الاجتياجات التي تقوم بها الصهيونية ضدهم، نجد التواصل في قصائده ولا نستغرب ذلك لأن الشاعر يقول ويكتب بصدق إحساس وعاطفة جياشة، نجد النقمة على اليهود من خلال مقاطع قصيدته، وكم من صورة يقدمها لنا من خلال قصائده، فهو يحذر وينبه في آن واحد، ويشد على أيادي المقاتلين الذين يحبون الأرض، ويقاتلون من أجل العرض، ويؤمنون بعدالة السماء في عودة الحقّ لأهله، ودحر الظلم، وتنفس الصبح مهما اشتدد ظلام الليل يقول سميح:

لابد أن تمضي

ظلامك حالك؟

لا بأس

مد يديك في حذر

وحاول أن تصيخ القلب

حدق بالأصابع

ولتكن أذناك

في هذا الظلام عصاك

لا!

ما أنت بالأعمى

ستفهمني

ظلامك دامس

وعليك أن تمضي

لديك رسالة

والنور في علب المرائس أنت تفهمني

تقدم!

بترتك طائرة بريش جناحها

أبصرت لحمك طائرا

ترتج في منقاره الدموي سنبلتان

واحدة لطفل جائع

سقطت على أبويه جدران المخيم

ولشعر من أحببت سنبلة[1]

يتابع سميح القاسم قصيدته موضحا لؤم وشراسة وحقد الأعداء، ويضرب أمثلة على قسوتهم، مثل قتل آباء الأطفال وأمهاتهم، وتفجير البنايات السكنية، والسجون المليئة بالشباب، والسيارات الملغومة، كل ذلك بأسلوب ثوري لا يعرف السكوت، بل نجد

(١) سميح القاسم- شخص غير مرغوب فيه، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، ط١، ١٩٨٦، ص٩، وهي في الأعمال الكاملة للشاعر: ٣/ ١٣٧.



obeikandi.com

نارًا تؤجج صدر القاسم، نارًا تحرق الأعداء، وتصب الحمم على رؤوسهم، نجد معان دفاقة منتزعة من الواقع الأليم الذي يعيشه الشاعر في فلسطين المحتلة.. احتلال.. سجن.. تعذيب.. طرد.. هدم بيوت، وقلع أشجار.. قتل واغتيال، اجتياحات...!!

سمعتك صارخًا من قاع موتك:

اقبلوا

أو فارحلوا ...

يا أيها الموتى بلا موتٍ

تعبت من الحياة بلا حياة

وتعبت من صمتي

ومن صوتي

تعبت من الرواية والرواة

ومن الجناية والجناة

ومن المحاكم والقضاة

وسئمت تكليس القبور

وسئمت تبذير الجياع

على الأضاحي والنذور

بعد هذا الفاصل من التعب، من الأشياء وعكسها، نراه يرسم لنا صورة لشهادة بطل فخخ نفسه ليلقى الشهادة راضيًا عن نفسه، فيقول:

دوَّنت عنواني

ورقم الهاتف السري

في سيارة ملغومة

ودفعتها في البر

لم أحدس



obeikandl.com

بأن غزالة زرقاء

سوف تلومني أبدًا

قتلت حبيبها

ونشرت عنواني

ورقم الهاتف السري

في أشلائه

وقتلت سنبلة ووردة

ونكصت مغموما

وكنت أنا القتيل

وقاتلي ذئب خرافي

كساني الخلق جلدة!

كدَّست أشلائي

وأشلاء العدو

(دماؤنا اختلطت)

وصورة منزلي المنسوف ظهرًا

والأضابير الصغيرة والكبيرة

والتقارير الوفيرة

والقرارات الخطيرة

والادانات الكثيرة

والنداءات المريرة

كلها كدستها

مختومة بالشمع والقصدير



obeikandl.com

فوق سفينة ملغومة

ودفعتها في البحر

لم أحدس

بأن «القرش» سوف يلومني

لا بأس

إن يدي على ظهري

وساقي في فمي

لا بأس

صور سميح لحظة من لحظات الألم الكثيرة، ولكن الملفت للنظر، أن الأضابير والتقارير والقرارات والإدانات والنداءات كلها ذهبت أدراج الرياح، لا فائدة منها.

وإذا كان هو/ الفلسطيني القتيل، فمن القاتل؟ فكان جوابه «ذئب خرافي كساني الخلق جلده»، فيها إشارة إلى عملاء اليهود من العرب. وينتقل الشاعر فيصور الأطفال حين يفقدون آباءهم أثناء اجتياح إسرائيل لكل بلد عربي، ويصبح هؤلاء الأطفال في الشوارع بلا بيت يأويهم.. بلا وطن.. ونحن ننظر ولا نبدي مساعدة سوى التنديد والإدانة، ولكن أطفال «الآر، بي، جي» هم الذين يدافعون عن حقهم. وحق آبائهم وأجدادهم، أطفال في عمر الورود يقدمون أروع ملحمة في البطولة والفداء، ولذا كانوا منه بمثابة القلب النابض، فيقول:

قلبي في الشوارع

طفل بلا أهل

دماه كثيرة

يُتْمٌ وآر بي جي

وجثة أخته الصغرى

وآلاف الحواجز

والجنائز

والمواقع

لا بأس

قلبي في الشوارع

طفل بلا أهل

تطوّحه الزوابع في الزوابع

أبدع سميح القاسم في قصيدة له حول اجتياح إسرائيل للبنان، واحتلال بيروت، وقصيدته بعنوان «جسم بدون رأس.. رأس بلا فم» إبداعًا لا مثيل له، من وصف للطائرات الإسرائيلية وهي تلقي القنائف والحمم على المخيمات وعلى الأطفال في بيروت وجنوب لبنان، وتمجيدًا للبطولة الحقة التي خاضها المقاتلون الفلسطينيون واللبنانيون في الدفاع عن عروبتهم، جاءت القصيدة في مقاطع قصيرة ثورية المعاني، ثورية الاتجاه، يقول القاسم في قصيدته، التي قسمها إلى عدة أقسام، ففي القسم الأول «ظلال طائرة إسرائيلية»، يبين لنا المأساة التي خلفتها طائرات العدو الصهيوني، مأساة ترسخت في قلوب الأطفال الذين لم يسلموا من التفجير بوساطة الألعاب الملغومة، وهذا أسلوب عدو ليس بجديد. يقول سميح القاسم:

دفتر

ما خريش الأطفال فيه أي حرف

دمية جاحظة العينين

في ومضة خوف

طابة

خبز مبعثر

وفم الطفل المدوَّر

نزعت للتو منه حلمة الأم القتيله

وذراع

وجديله

أحرف عبرية

قنبلة موقوتة

جمر دخان وشظايا

كل الأسمنت

أسماك سناج

مسند الكرسي

أثاث

زوايا[1]

هذه صورة للمأساة التي حلّت بلبنان، وأهلها في الشطر الغربي من بيروت، والشاعر أورد صورًا رائعة حين قال: «نزعت للتو منه حلمة الأم القتيلة»، و«ذراع.. وجديلة» وما زال الشاعر في ميدان المعركة، يري الطائرات وهي تقصف المدن والمخيمات، ويصف لنا الدفاع والمقاومة، كل ذلك وهو في فلسطين يقاوم العدو نفسه كل يوم، فهو في معركة دائمة ومستمرة متجددة، ولكن من يعي ومن يقول!!

يقول القاسم في المقطع الثاني من القصيدة، وهو بعنوان: «أدافع»

الطائرات الإسرائيلية

العائدة إلى قواعدها سالمة

تترك وراءها خطاً أبيض طويلا

(أطول من شرايين.. أطول من أنابيب النفط)

ذلك الخط المتوعد كحبل المشنقة

هو البيت الأول في النشيد

أما بعد

---

(١) جريدة البيان العدد«٧٨٢»، ٩يوليو ١٩٨٣م، الصفحة الأخيرة ص١٨، دبي، وهي منقولة عن جريدة الرأي الأردنية بتاريخ ١٩٨٢/٦/٢٤م.

فلا وزن يستقيم مع صرخات أطفالي الأخيرة

هل قلت أطفالي؟

لم أزر «صور»

لم أتمدد على كرسي القماش الملون

في شرفة فندق صيداوي

لم أنشد مطلعا لجماهير بيروت

هل قلت أطفالي؟

لاحظ الطائرات الإسرائيلية العائدة (سالمة)، ومع سلامتها كانت المفارقة في أن تترك خيطًا (كحبل المشنقة) أطول من الشرايين/ شرايين المقاتلين.

والشاعر يصرخ مع صرخات الأطفال، ويوضح لنا كيف قاوموا وحدهم في صور وصيدا وبيروت، صورة للقصف الجوي والبحري والبري، وبيانات الشجب والاستنكار، والإدانة على الورق في سلات القمامة، والشاعر يشير إلى العرب وموقفهم المتخاذل، وذلك من خلال قوله: «أطول من أنابيب النفط»، فمعلوم أن بلاد العرب هي بلاد النفط، ولذا فإننا نري العربي/ الحاكم، يختبئ خلف هذا السطر الشعري بخزيه وعاره!

الشاعر يتمنى المشاركة في القتال، ولكنه محروم منها، فهو حزين على هذا الوضع المأساوي، وهنا نجد بعدًا وطنيًا قوميًا لدى الشاعر. وموسيقي حزينة تلمحها من خلال مقاطع قصيدته، وسخطه ونقمه على العدو وأعوانه، وهذه الأبيات قيلت في وقت المأساة، وأثناء الاجتياحات فجاءت قوية كقصف طائرات الفانتوم، ومحرقة كالقنابل الفسفورية التي مزقت وشوهت أجساد أطفال بيروت وصيدا وصور.. يتابع سميح قصيدته فيقول:

أنا المحروم من شرف التفجير بديناميت الحب

أنا أسير الحرب المتمتع بحق الانتخاب

أنا المواطن المقيم دائمًا على مجرود الزبالة

هل قلت أطفالي؟

لتزدرد الأسرار أسرارها

كامل هو الوضوح

سلام روحي غير منقوص

القصف برًا، وبحرًا، وجوا

بيانات الاحتجاج والإدانة

دُمى الأطفال

وجماجمهم المتناثره

تحت جنازير الدبابات المتقنه

الخضرة المتلاشية في الضجيج

وقع الأقدام المرتجفة تحت بقايا الأدوات المنزلية

تكمش الأكف الغضة على فولاذ البنادق

ويتابع قصيدته قائلاً في القسم الثالث منها، وهو بعنوان«اعتراف»

تلك ليلاك

على أرصفة المار

بفي تتطوح

وعلى أذرع البحارة الأغراب

تتشال وتطرح

تلك ليلاك

دم في غرف التحقيق يرشح

وصراخ حيواني

بوحل الذل ينضح

تلك ليلاك

فهل تتكرها يا «بن الملوح»؟!!



obeikandl.com

كلبة

تضمر في الجوع وتتبح

فاعترف يا «بن الملوح»!

لا تقل لي:

«خلُّها في القلب تجرح»

لا تقل لي:

كل ما في جسمك الميت يزري

كل ما في روحك الميت يفضح

فاعترف

يا «بن الملوح»!

الشاعر يستلهم التراث العربي القديم، من خلال قصة الحب العذري بين قيس بن الملوح، وحبيبته ليلي، وسميح القاسم يرمز للعربي بقيس، أما ليلي فهي الوطن السليب، فإذا كانت «ليلى/ الوطن»على أرصفة المار، متاحة ومباحة للجميع، بين أذرع البحارة»لاحظ صيغة الجمع» فهو ليس بحارًا واحدًا، ولاحظ دلالة الكلمة، فالبحارة، لا مأوى لهم ولا سكن معظم أوقات العام، تمامًا كما الإسرائيليون لا مأوى لهم، ثم لاحظ أن ليلي صراخاتها عالية مستغيثة ولكن أين ابن الملوح / العربي، ربما مات لكنه يتحرك ويتنفس!!

ينتقل سميح القاسم في أبياته ليقدم لنا صورة بطولية نادرة للطفل الذي فقد ساقيه نتيجة قصف الطائرات الإسرائيلية ، ولكنه صمم على القتال بدون ساقين.. واتجه مدافعا ومقاتلا ناظرا إلى الناصرة بعينيه.. فهو يقاتل من أجل الناصرة وفلسطين، يريد العودة.. فالقتل، وقطع اليدين، والرجلين لن يثياه عن الأمل المنشود يقول:

رأيت رأي العين

مقاتلا في العاشره

يمشي بلا ساقين

ووجهه...

للناصره

بعينها الكحيله

بالشفة البتول

بالوردة الحمراء من الجديله

حبيبتي

أميرة الفصول

تقاوم المدافع الثقيله!

ويخبرنا سميح القاسم في نهاية قصيدته عن كيفية قتال هؤلاء الأبطال، ومن أين يخرجون؟ صورة رائعة زيّن القاسم قصيدته بها.. فهم يخرجون من بقايا الردم في المخيم، ومن ترابه، يخرجون من الكهف.. الخرابات.. الخندق.. الشوارع.. الحرائق.. يتلاحم اللبناني والفلسطيني، وقد رمز الشاعر لذلك بقوله: «يأتون بالأرز وبالزيتون» الكل يتآزر لمواجهة العدو والمتربص بنا..

من ظل المخيم

يأتون

من خنادق التحدي

في شارع تهدم

يأتون

من كهف، ومن خرابه

براية الصمود والتصدي

ويبصقون دمهم في جهة الدبابة

يأتون بالأرز، وبالزيتون

يأتون بالبيارق

يأتون في الحرائق

يأتون

من عكازة الشيخ

ومن شهية الجنين

يأتون بالحب وبالحنين

بالموت واليقين

يأتون

فامدد أذرع الدمار

يا أيها التنين

بهذه السطور المعبّرة قدم لنا سميح القاسم لوحة فنية مليئة بالصور البلاغية، فنطقت هذه اللوحة وتكلمت عن ميدان المعركة بكل جوانبها، قدَّمها لنا بنفس امتزج فيها الحزن والبكاء، بالصمود والتحدي، كل ذلك جاء بوصف دقيق لمجريات المأساة بمعان مناسبة للموقف، بالإضافة إلى الموسيقي الداخلية التي تماوجت على شكل القصيدة واندمجت مع المضمون الكلي للنص، فضلاً عن التكرار، والقافية التي تلمع بين فترة وأخرى.

قصيدة أخرى لسميح القاسم بعنوان «عمامة للمملوك، طربوش للأغا، وقداس لبيروت» يبدأها واصفًا حالة وحال أسرته من مجاعة وتشرد، متخذًا من «الخبز» أداة لصورته الشعرية، ومعلوم أن «الخبز» أساس الحياة، فيقول:

لا خبز غير وداعة الأموات

فليكن الإدام

وشلاً على الأحداق خلف الدمعة المتحجِّره

ولكِ المجاعة والسلام

يا أسرتي المغلوبة المغلولة المتكبِّره

القمحُ. هذا العام. منذور لحرب جلالة السلطان[1].

وفي نهاية القصيدة يدعو سميح المقاتلين للثبات والصمود، ويدعو بيروت للانتفاضة وعدم التسليم، فيقول بنبرة الأسى والحزن، يدل عليها كثرة حروف العلة في المقطع، فيقول:

بيروت فانتفضي

وقومي من رمادكِ يا ابنة العنقاء

يا شرف الأوائلْ

بيروت

يا عار الطوائف والحمائلْ

والعشائر والقبائلْ

بيروت

يا حلمًا وحيدا

حوله مليون قاتلْ؟!!

ونجد سميح القاسم في «سربية الصحراء»[2] قد التحم بالأرض وأصبحت الأم والزوجة، بل أصبحت كل شيء عنده، هذا بالإضافة إلى أن هذه الصحراء الشاسعة، سرابها يبهر العيون الساذجة، كفاح مرير ضد الأفاعي والعقارب، صورة رمزية يقدمها القاسم من خلال قصيدته. «سربية الصحراء»، وهي ترجمة وافية للواقع العربي المكلوم المهزوم، وتحذير من اليهود الأفاعي، وحنين إلى الوطن الحبيب، ورجاء، وتوسل للبحر ليرحم الأهل، وتطلعات للمستقبل بعين فاحصة محبة، حياة المخيم وزخم المقاومة، سراب الصحراء الذي يركض وراءه اللاهثون على السلام الذليل، وما هم ببالغيه، فيقول:

غربا تضيع الشواطئ

---

(١) سميح القاسم – الأعمال الكاملة – دار سعاد الصباح، ١٩٩٣م، ٣/ ٥٤٦.

(٢) سميح القاسم – في سربية الصحراء– دار الجليل للنشر/ عمان، ط١ ١٩٨٥، ص٨٤ .

في زبد الذكريات

ولي في الجنوب

مطارح وجد بعيد قريب

ولي في الجنوب

هوي ليس يبلي

تخبئه في مناديلها

بنات المكلا

ولي في الجنوب

صهيل خيول

وصيحات قتلى:

الا أيها الموت

أهلا وسهلا

لأنك عمر جديد

وخبز، وشعر، ودفلى

أما قصيدته «ليلا، على باب فدريكو» والتي ينبّه فيها للخطر الداهم على الأمة العربية جمعاء من قبل العدو الصهيوني، وتوسعاته المتكررة والمنفذة حسب خطة وضعت في بروتوكلات حكماء صهيون.

لذا يتلهف الشاعر إلى الوحدة العربية من أجل الشرف والكرامة اللذين ديسا بأقدام اليهود في المسجد الأقصى وبيروت وسيناء والجولان... وغيرها من بلداننا العربية، وهو في نصه «على باب فدريكو» يعالج الوضع المنكوب بلغة الشعر، من خلال إيحاءات أوردها في أبياته، والتي يقول فيها:

فدريكو

الحارس أطفأ مصباحه

انزل

أنذا منتظر في الساحه

فد.. ريكو

قنديل الحزن قمر

الخوف شجر

فانزل

أنا أعلم أنك مختبئ في البيت

مسكونا بالحمَّى

مشتعلا بالموت

فانزل

أنذا منتظر في الساحه

مشتعلا بلهيب الوردة

قلبي تفاحه[1]

من الملاحظ أن القاسم في قصيدته يطلب الحماية من شخص أجنبي اسمه «فدريكو» بعد أن تخلي جميع الأهل والأصدقاء عنه في ساعة الضيق.!!! آية ذلك قوله في القصيدة نفسها:

انزل فدريكو

وافتح لي الباب

أسرع

أنذا أنتظر على العتبه

أسرع

---

(١) الأعمال الكاملة: مصدر سابق، ٣/١٧٥ .



obeikandl.com

في منعطف الشارع

جلبة ميليشيا مقتربه

ومن القصائد التي صوّرت المأساة أيضا قصيدة «لن يمروا»[1] للشاعر على الخليلي وهي مقاطع قيلت في موسم النزيف والحصار أثناء اجتياح المدو الصهيوني لجنوب لبنان، ولقد وضحت أبيات القصيدة كثيرًا من الصور البطولية الرائعة، إذ نجد أن عنصر البطولة موجود في هذه الأبيات، بالإضافة إلى الأمل الذي يخيم على الشاعر وكيف لا؟ وهو ابن الأرض المقدسة، بل يصوّر لنا بيروت بأنها الرقم الأخير، ولكن الصمود البطولي هو الذي أسقط كل الرهان.. يقول فيها:

والحائط الأخير

أكبر من واشنطن

أكبر من أوسمة الجنرالات

ناقلات الجند والدبابات

والطائرات

والطائرات

والطائرات

أكبر من عواصم الصمت

ومن قبائل الموت

ومما يملك الملك والأمير

والحاكم الأجير

والشارع الأخير

لاحظ الإسقاط الرمزي من خلال قوله «عواصم الصمت»، وهو يشير بها للعواصم العربية، و«الحاكم الأجير»، وهو يشير إلى الحكام العرب، إنها إسقاطات على الأمة العربية بخنوعها الذليل، وصمتها المريب!!

---

(١) الخليج الثقافي العدد ١١٩١- الاثنين ١٢ يوليو ١٩٨٢، ص١.



obeikandl.com

ثم تأمل قول محمد شديد في قصيدته «بيروت»، وهذا القول ينبئ عن نفس مؤمنة بقضيتها حتى الموت، مصمِّمة على التحدي حتى الرمق الأخير، يقول:

هل من حرٍّ أو طمَّاح للعربه

لا تجمعه ومنائر بيروت مصير قضيه؟

ماذا بعد تبقَّى منا غير ضآلتنا وتفاهتنا

كم كان الأحرى أن لا تتجب ذريه

أو.. تقتلع الطفيان من الأرض العربيه[1]

وله قصيدة أخرى بعنوان «آلهتنا الأقزام.. وبيروت.. والحرية» يقول فيها معرِّضًا بالحكام العرب، والدول العربية، يقول في مطلعها:

لو جيرانا كانوا، لا عربا، بل من عشرين هوية.. جنسية

ولديهم بعض من شرف وإباء قومي.. وطني

وانفرست وسط ممالكهم صهيونيه

تنتزع الأرض.. تدمِّر.. تقتك.. تفترس الأطفال.. وتستهتر بالروح البشرية

لو جيرانًا كانوا، لا عربًا، لتداعوا.. نهضوا يقتلعون جذور الشر

خلاصة نهج النازيه.

ثم يقول على الحكام العرب، واصفًا إياهم بالآلهة، ولكنهم أقزام أمام الآخرين، فيقول:

يا عشرون إلهًا قزمًا متناحر

غدرًا ودسائس حقد محموم وخيانات وتآمر

يا عشرون إلهًا صفروا.. صفروا

واندسوا في قمقم إسرائيل المنتصر الظافر

ثم يتمرَّض للشعب العربي الراضخ للذل والقهر بقوله:

---

(١) محمد شديد: نقلاً عن مأساة بيروت - مصدر سابق، ص ٢٤٠.

يا عشرين مدينة قهر، عاصمةً زعموا.. تخطر فيها كل نهار

عشرون مسيرة موكب عار

يا عار التاريخ، وأي قباءة عار للأجيال غدوتم، أي شنار؟

ماذا اقترفت أجيال في رحم المستقبل من ذنب..

كيما عنكم ترث العار!!!

عار تتاحركم وهزائمكم، وحذاء الإسرائيلي يمرغكم!

وللشاعر الكثير من القصائد التي تصور المأساة، نذكر منها «عذرًا لبنان»، «بيروت وهوان العربي»، «أبدًا لن تهزمني يا نذل الروح»، «ثورة على الواقع»، «نهر الدماء وانحرف»... وغيرها من قصائد، ومن يقرأ قصائد الشاعر يلحظ حنقه وغضبه من الشعب العربي، وحاكمه المستبد، ولذا كان كثير الانتقاد لهذه الشعوب.

ويبدو أن مأساة لبنان كان لها النصيب الأكبر من الشعر، وأيضًا كان لها الفضل على الشعر، من حيث أنها كانت مصدر الهام الشعراء، والشعر الذي قيل حول المأساة نبّه إلى كثير من الأمور والقضايا منها:

**أولاً:** خطورة الموقف، والتفكك بين الدول العربية.

**ثانيًا:** المقاومة الفلسطينية هي درع يحمي الأمة العربية.

**ثالثًا:** أطماع إسرائيل وعملائها في المنطقة.

**رابعًا:** دعوة واضحة إلى الوحدة، والوقوف صفا واحدا لمواجهة العدو المتربص بنا.

**خامسًا:** دور المقاومة اللبنانية في المعركة[1].

وهذه الأمور نلمسها في معظم القصائد التي قيلت في المأساة، ومن كافة الشعراء العرب.

* * *

(١) د. إبراهيم الوحش: مأساة بيروت، ص ٢٢٣.

# الفصل الثالث

## تأثير المأساة على الشعراء الفلسطينيين خارج الأرض المحتلة

obeikandl.com

obeikandl.com

مأساة لبنان كانت قاسية على قلوب الشعراء الفلسطينيين في شتي أنحاء العالم، تغنى شعراء فلسطين بالمأساة، وما أدت إليه من ضياع وفرقة، وانطلقت حناجر الشعراء باكية حزينة مصورة فراق الأهل والأحبة، ناقمة على المتآمرين، ساخطة على العدو الصهيوني، ممجدة الشهداء الأبطال الذين سقطوا دفاعًا عن الشرف العربي، أعداد كثيرة من الشعراء نقلوا مأساة لبنان عبر نشيج شعري مؤثر وعاطفة جياشة ملتهبة، من هؤلاء الشاعر معين بسيسو، الذي صور لنا ما جري في تلّ الزعتر من هدم وقتل من خلال قصيدته «برقية إلى تلّ الزعتر»[1] ونجد في هذه القصيدة تلاحمًا بين الشعر والقنبلة التي كانت تقصف المخيم، تلاحما في وصف دقيق لمأساة شعب تلّ الزعتر، وتصف القصيدة تفاصيل الفاجعة، يقول:

«تلّ الزعتر»

صار جدارك للشعراء، جريده

والقنبلة بكفك، تتفجر قصيده

وضفائر كل نساء الأرض

تتمني أن تصبح علما لك

تلّ الزعتر

كل ينابيع وأشجار فلسطين دباييس

بشعر نسائك

لاحظ استعمال الشاعر لـ «كل» التي تفيد العموم والشمول، وليست برقية معين بسيسو إلى تلّ الزعتر، برقية حب وتقدير فقط، بل هي لبطولة جيل صمد في وجه الفاشية الانعزالية، إذ كانت بداية المؤامرة على الشعب الفلسطيني، ومعين ابن المخيم

(١) معين بسيسو: الأعمال الشعرية الكاملة- دار العودة بيروت، ط٢، ١٩٨١، ص٦١٧ .

يكتب بدمه برقية لأبنائه وأطفاله، الذين ماتوا عطشا في المخيم، ويشير - أيضًا - إلى الزعماء العرب مواقفهم المخزية بقوله:

كل شرايين الجنرالات الُركع

فوق خرائطهم

أربطه لحذائك

والطائر والثمرة والسمكة

وجميع دواوين الشعر

تحلم أن تصبح ألفاما

تحت ترابك

«تلّ الزعتر»

يا جرحا يتسع ويصبح

هذا الوطن الأكبر

لاحظ البعد الوطني يتجلىّ عند الشاعر حين يربط بين تلّ الزعتر في لبنان، وبين جبل الكرمل وغزة في فلسطين، ويظهر البُعد القومي، والارتباط بالأرض عند الشاعر، وذلك في قوله:

غنّيتُ طويلا للدالية على جبل «الكرمل»

وكتبت كثيرًا للزيتونة في جبل «القسطل»

وحملتك يا غزة

آه على غزة

كان العنق يذوب كشمعة

والأطفال وراء المتراس «بتلّ الزعتر»

في جسر الباشا والنبعة...

يخترعون لطفل في تلّ الزعتر

وردة...



obeikandi.com

الجرح واحد... فتل الزعتر هو امتداد للجرح الفلسطيني، والارتباط الروحي، وحب الأرض واضح عند الشاعر، وهاجس الخوف يلاحق الإنسان الفلسطيني أينما وجد، وتلّ الزعتر جزء من مأساة العربي المعاصر، فمأساتها تذكر بالمآسي والمحن الأخرى، كفزة، والكرمل، ومعارك جبل القسطل، وغيرها من معارك.

ويتابع الشاعر قصيدته مبينًا بأن تلّ الزعتر قاتل وحده، وصمد في وجه قوي الشر، وأصبح صموده أسطورة تاريخية، تتحاكي بها الأجيال، فيقول مخاطبًا أبطال التل:

وذراعك ماسورة مدفع

والنجمة تحلم أن تصبح.

فوق ذراعك شامه

الآن لكل حمامه

طارت من صدرك يا «تلّ الزعتر»

الآن لكل فراشه

قاتلت الفولاذ على جسر الباشا

الآن لتلك الشممه

صارت أصابع بارود في النبعه

أنا اقطع كفي

أرسلها لك يا «تلّ الزعتر»

برقية

وتتضح المأساة لنا أيضا من خلال أبيات الشاعر في قصيدته «أكتب جسدي.. كي تقرأ جسدك»

ومأساة بيروت هي مأساة تلّ الزعتر وجنوب لبنان وفلسطين، فالخنجر المغروس واحد، تحمله يد حاقدة مسمومة، والجسد المذبوح هو الجسد نفسه رغم اختلاف المكان والزمان، رغم اختلاف المتآمرين، لكن الأمر واحد، والفريسة واحده:

بيروت وحيده

والجرح وحيد

والشاعر يا بيروت وحيد

الدم سيبقي يتدفق من أجل الحرية.. من أجل بيروت وتلّ الزعتر، والعروبة، وأمل الشاعر قوي وإيمانه بالثورة عميق، فما دام الدم يراق، فلابد من بزوغ صبح الحرية، ويتضح ذلك من قوله:

الدم لم يتعب

والدم لن يهرب

وسأبقي أكتب

الآن بتلّ الزعتر

كيس من رمل

يتزوج شجره..

أيتها الثوره،

لك جسد الأرض[1]

وفي قصيدته «مجنون تلّ الزعتر»، لاحظ العنوان يتطابق مع «مجنون ليلى» وكأن عشق «تلّ الزعتر» استبد به، أو أن شاعرنا أصيب بداء الهيام، كما أصيب قيس من قبل، فراح يقول:

أيها التل العظيم هذي لحظة انتصارنا

فكلما تسافر السكين في رقابنا

تخرج الأشجار من أجسادنا

وتخرج النساء والأنهار من أحجارنا

وتسقط القصائد، الجرائد، العواصم، الخواتم المجففه

على كراسي الأرصفه

---

(١) المصدر نفسه ص ٦٢٨ - ٦٢٩.



obeikandl.com

نحن ما قتلنا

نحن قد زرعنا[1]

في لحظات سقوط القواصم، والخواتم والجرائد، وما تشير دلالة كل مفردة منها، يؤكد الشاعر إننا لم نقتل بل (قد) زرعنا، ولاحظ استعمال (قد) التي تفيد التحقيق، مع ملاحظة استعمال مفردة «الزرع» التي لابد وأن يثمر.

وبيروت سيطرت على الشاعر واستحوذت كل أفكاره، ففي فترة الحرب والدمار امتشق الشاعر قلمه موضحا ما جرى للمدينة المحارية، فكل شيء في المدينة شاهد على الدمار والخراب، وقصيدته «بيروت أصبحت بعيدة»[2] أول شاهد على الجريمة التي حلّت بها وبأحيائها، يقول فيها:

الشاعر السعيد في المطار

القارئ السعيد في المطار

والطريق للمطار آمنة

والطائرة

لم تكن مواطنة

وليس كيس الرمل وحده

هو البطل؟

وهذه بيروت

لا تحيا ولا تموت

بين جثتين تكتب الجريده

وبين جثتين تطبع الجريده

وبين جثتين تقرأ الجريده

والشاعر السعيد في انتظار الطائره

---

(١) المصدر نفسه ص٦٣٥- ٦٣٦ .

(٢) المصدر نفسه ص٦٤٠- ٦٤٣ .



obeikandi.com

والقارئ السعيد في انتظار الباخره

وليس كيس الرمل وحده

هو البطل؟

وهذه بيروت

وراء حائط تحيا.

وراء حائط تموت..

كل شيء معطل في بيروت التي لا تحيا ولا تموت، ولاحظ أن الكتابة والطباعة والقراءة وهي أفعال تحتاج لوقت، كل هذه الأفعال تُصنَع بين الجثث المتراكمة في الشوارع والأزقة.

ثم ينتقل الشاعر بعد وصفه لصعوبة وفداحة الموقف في بيروت ومطارها، مخاطبا المدينة قائلا:

أيتها المدينة، السحابة، الرصاصة، الرغيف

أيتها الزجاجة السفينة المكسورة التي تضاجع

البحارة القتلى على الرصيف...

ونلمس الألم ونشعر به عند الشاعر من خلال قصيدته «إلى جدران بيروت»[1]، والتي يصف فيها الوجع والألم، وصمود الأبطال والأطفال في لبنان يموتون جوعًا، ويتحدي الشاعر في نصه كل من يظن بأن أهل لبنان سيخضعون وما هم بخاضعين .. يقول:

هنا..

متراسُنا هنا

وهذه الطيور في سمائكم

أطفالكم، أطفالنا...

رفاقنا

---

(١) المصدر نفسه ص٦٤٣- ٦٤٤ .

نقسّم الرصاص في حواصل الطيور.

بينكم، وبيننا

حبات قمح

حبة لكم، وحبة لنا..

مترامسُنا هنا

نقص بالأصابع المنديل فوق جرحنا

قطعة لجرحكم

وقطعة لجرحنا

أطفالنا

سيحملون كيس رملكم

أطفالكم.

سيحملون كيس رملنا

وهذه إشارة واضحة للتضامن والتعاون بين المقاتل الفلسطيني وأخيه اللبناني على ساحة القتال في بيروت ونجد فيها الفخر والوحدة اللتين نحنّ إليهما في هذا الوقت.

وأما قصيدته «غزلان تركض نحو الشمس» ففيها نجد وصفا دقيقا للقتلة، سفاكي الدماء مبينا بأن القتلة لن يرحموا هذا الدم أينما وجد في بيروت أو غيرها[1].

وكذلك انطلقت حنجرته ناقمة مجلجلة في الآفاق، بقصيدة "رسالة مفتوحة إلى قلعة الشقيف" مصورًا فيها البطولة الفذة.... الصخرة القاسية التي تحطمت عليها آمال الغزو الصهيوني، وكم من محاولة يائسة باءت بالفشل لاحتلال القلعة.. ومرد ذلك لتضحية نفر قليل من أولئك الشباب الذين نذروا أنفسهم للدفاع عن دينهم وأرضهم وفازوا بالحياة الآخرة، وفي رسالته إلى قلعة الشقيف نلمح عدة أمور منها:

تصوير البطولة الرائعة التي خاضها الفدائيون المحاصرون في القلعة، رغم مساعدات أمريكا المستمرة لإسرائيل، ثم الصمت العربي المطبق، ثم تساؤلات الشاعر

---

(١) المصدر نفسه.



obeikandl.com

كثيرة كيف قاتلوا وحدهم؟

حقًا لقد قدم لنا ممين بسيسو درة ثمينة وواحدة من أجمل القصائد التي قيلت في حرب عام ١٩٨٢م؛ لأنها تنبع من نفس حزينة صادقة، ذاقت المرّ والقتل والتشريد، وعانت الضياع والحرمان، يقول بسيسو:

عيون أطفالكم

أزرار قمصانكم

أصابع أطفالنا ملاعق

اشربوا بها حبركم، وامضغوا الورق

أوشكت تدق ساعة حائط الغرق

يتابع الشاعر قصيدته معلنًا سخطه على هذا العالم، موضحًا وصفًا حيًا لمعركة قلعة الشقيف، مدبجًا رسالته الشعرية بأروع الصور البلاغية من تشابيه واستعارات التي استطاعت بمعانيها أن تعبر أجواء الوطن العربي، لتصل إلى القاصي والداني، وينظر الشاعر نظرة فاحصة لمن حوله.. نظرة حزينة/ فرحة، حزينة على الوضع المأساوي الذي أصبح عالمنا العربي يعيشه هذه الأيام من صمت وخذلان، وفرحة لأولئك الأبطال الذين سطروا أروع الملاحم البطولية في هذا العصر المتخاذل، ولذلك يطلب منا أن ننظر إليهم وهم يكبرون، وهم يسطرون الانتصارات، فيقول:

وانظروا انظروا

إن قطرة الدم الفلسطيني

تكبر الآن تكبر الآن

تصير سفينة تملأ الأفق

اشربوا حبركم، وابتلعوا الورق

وعلقوا على حبل الغسيل برقياتكم

وعلقوا الخطب

وقولوا أي شيء لنا

اكتبوا أي شيء لنا

ادهنوا أصواتكم بدهان الخطب

ضعوا على وجوهكم أقنعة اللهب

ولا تقولوا شيئًا واحدًا .. لا تقولوا

إننا عرب[1]

لاحظ حماسة الشاعر وتعالي نبرات صوته المحتدة الغاضبة على الأمة العربية آية ذلك تدفق أفعال الأمر من المقطع، ثم صرّح بذلك من قوله: «لا تقولوا إننا عرب»!!

ومن قلعة الشقيف في جنوبي لبنان ينقل الشاعر معين بسيسو في قصيدته "الفلسطيني اسمه ياسر عرفات" وصفًا للحصار الذي فرضته قوات الاحتلال الصهيونية لمدينة بيروت، وحصار المقاومة الفلسطينية وقيادتها داخل عاصمة الفقراء، وأبياته الشعرية كلها تمجيد للبطولة الفلسطينية، ولكن الصورة التي رسمها من خلال أبياته، هي صورة للمقاتل الفلسطيني الذي وقف كالطود الشامخ في وجه القوات الصهيونية المدعومة بمختلف أنواع الأسلحة، بينما هو مجرد من السلاح إلا سلاح عقيدته وإيمانه بقضيته، فيقول:

هذا الصهيل، وأنت باق في فمك

هذا الرحيل، وأنت باق في دمي

هذا الحصار، وأنت باق في يدك

ويبايعونك

إنك الكبش المكحّل

ذو الجدائل

إنك الكبش المسربل

بالقرنفل والسنابل

إنك الكبش الملك

---

(١) جريدة البيان - العدد «٧٥٢»، ٩ يونيو ١٩٨٢م.

نبتت بصدرك كل أعشاب الخناجر

أيها الكبش الملك[1]

لاحظ التكرار في المقطع "أنت باق" ثم يتوزع منها البقاء، على النحو التالي:

- الفم، مضافًا لضمير المخاطب "ك".

- الدم، مضافًا لضمير المتكلم/ الذات "ي".

- اليد، مضافًا لضمير المخاطب "ك".

إشارة إلى الحصار المفروض على الفلسطينيين، فالذات/ الأنا، واقعة بين ضميري المخاطب، فكأنها/ الأنا، بين فكي الرحا.

ثم لاحظ استعمال بسيسو لكلمة "الصهيل"، وما بها من ظلال فروسية وشجاعة عنترية، ثم يقول:

فلمن رقاب الخيل حبلى بالعسل

ولمن تعبئ من حوافرها الجرار

ونحن من شرك إلى شرك نسير

كأن في دمنا الشرك

والآن أنت هنا

وقرص الشمس في يدك الرغيف

وبين متراسين تزرع نخلتين

وتنتظر،

دوري، طواحين الشجر

وأنا وأنت هنا

ووجهك صار عاصمة لنا

وأنا أحبك وسط هذا الرعب

---

(١) المصدر نفسه.



obeikandl.com

في هذه المقاطع نلمح حب الشاعر للقائد (عرفات) حبًا يكاد يصل إلى درجة المبالغة، ولكن بصورة شعرية رائعة، مليئة بلوحات فنية، وخيوط متشابكة، وألوان مختلطة ورموز معبرة.

كالقمر المطارد

أين يا قمر الخنادق تختبئ

وأنا وأنت هنا

ومن كفيك وجهي يبتدئ

هذا هو المتراس دالية من النيران

يكثر الشاعر من استخدام بعض المفردات التي لها علاقة بالواقع المحاصر الملتهب مثل: الخندق، المتراس، الدم، المشنقة، المقصلة، الحصار، الذئب، الحجر، الدالية والأرض، وكل هذه الأشياء مرتبطة بحب الإنسان لوطنه، ويكاد يتكلم الشاعر في مقاطعه مع القائد، فهو يستخدم ضميري المتكلم "أنا"، والمخاطب "أنت"، وهو يبكي حزنًا وألمًا، ويتضح بكاؤه وحزنه من خلال معانيه وألفاظه التي تثير الانفعال والإحساس على المقاتل الفلسطيني في لبنان؛ لأنه وقف وحيدًا في المعركة غير المتكافئة، ولكن ما زال الفدائي رابضًا غير مستسلم، يقول:

ويطاردونك

كل من وأد البيارق والبنادق

راح يحضر في الهواء

وفي التراب

لكي يئد!!

كان لحصار بيروت، وصمود الفلسطينيين، ورحيل المقاومة وخروجها من المدينة، وتخاذل الجميع أثره الكبير في النفوس، وهذه فدوى طوقان ابنة فلسطين تكتب حزنًا على شباب الوطن.. الأبطال.. ولقد صورت الفدائيين بأبلغ الصور منهم الحبيب، والأخ، والأب، والماء، والشرف، وبخروجهم ستبقى ظمأى لأنهم النبع الدفاق الذي يمدنا بالري كلما جفت ينابيع الحرية، وكلما ضنَّ الأخوة بالماء، هؤلاء الأبطال هم من ينير لنا

الطريق للغد المأمول، تقول فدوى طوقان في قصيدتها:

"ذهب الذين نحبهم"

نسرًا فنسرا.. غالهم وحش الظلام

سرق السموّ من الأعالي.. آه يا وطني

عليك من الدم الغالي سلام

من أجلك انفرطت عقود دمائهم

حبات مرجان، كنوز لآلئ.

«ذهب الذين نحبهم...»

لا صوت للأحزان، انظر

أورقت صمتًا على شفتي أحزاني

وأطبقت الحروف شفاها

تتساقط الكلمات صرعى مثلهم،

جثثًا مشوهة، ترى ماذا أقول لهم؟[1]

والغربة وعذابات النفي والتشرد خلقت عند الشاعر هارون هاشم رشيد نموذجًا واضح المعالم في قصائده، وقصيدته "عرض تلفزيوني لأطفال فلسطين" توضح لنا مدى تأثر الشاعر بحصار بيروت، وبيّنت لنا نقمة الشاعر على أولئك المتآمرين المتخاذلين، بل نجده مناضلاً بالكلمة، رافعًا رأسه إجلالاً وتقديرًا لأطفال فلسطين، الذين حملوا السلاح، وقاوموا، وما زالوا على الدرب، يقول في قصيدته:

من رأى الأطفال

في عمر الزهور

من رآهم عند «صيدا»

---

(١) نقلا عن مأساة بيروت في الشعر: ص٣٥٩ .



obeikandl.com

وعلى أبواب «صور»

من رآهم في "الراشدية"

تحت الشمس..

من غير قبور؟![1]

يتحسر الشاعر، ويتقطع حزنًا وألمًا حين يرى أشلاء أطفال فلسطين متناثرة هنا وهناك، لا تجد قبرًا تدفن فيه، تلهو بها مخالب الفربان، وتمزّقها أسنان الضباع، يقول:

ها هنا رأس،

هنا رجل،

هنا بعض الثياب،

هذه مريلة ممزقة

مرمية فوق كتاب

هذه مدرسة،

مرت عليها، طائرات الغزو

خلتها خراب

من رأى الأطفال

من يعرف،

ما معنى الطفولة

أي أحلام جميلة

أي آمال نبيلة.

ويربط الشاعر بين مجزرة دير ياسين، وبين صبرا وشاتيلا ربطًا واضحًا، من حيث المقتول والمعذب والمشرَّد، فهو نفسه في كلتا المجزرتين، وكذا القاتل واحد فيهما، وكذلك كان موقف الجمهور/ العرب منهما واحد، يتمثل في الصمت الذليل، ويصور لنا هارون

(١) الخليج الثقافي - ملحق العدد ١٢١٨، الشارقة ٩ أغسطس ١٩٨٢، ص١.

الأطفال المقتولين، وكأنه ينقل لنا وصفًا حيًا وواقعًا مريرًا، يقول:

قتلت في هذه الأنحاء غيلة
عبرت من "دير ياسين"
إلى "صبرا"
وحطمت في "شتيله"
من رأى،
كيف يدوس الغزو
آلاف البراعم
عبرت من فوق
حسّان، وعدنان، وهاشم
قطعت ساق سعيد
مزّقت صدر مزاحم
شوّهت ليلى
وفردوس
وروزيت، وهانم

لا يخفى على القارئ أن هذه الأسماء المتناثرة، أسماء رمزية لآلاف الأطفال الفلسطينيين المشردين. ويتابع الشاعر عرضه لأطفال فلسطين قائلاً:

من رأى الأطفال
في الشمس،
عرايا في الدروب
من رآها "كربلاء"
مرة أخرى،



obeikandl.com

"بصيدا" و"الجنوب"

من رأى جيش "هولاكو"

بالعصابات "يؤوب"

وفي نهاية قصيدته يبين لنا الشاعر من خلال سؤاله المتكرر، أن هناك الكثير من الناس من شاهد وسمع ورأى، ولم يبد حراكًا تجاه الأطفال الصامدين، وهو يشير بهذا إلى الحكومات العربية التي تقف مكتوفة الأيدي، لا تملك إلا "الإدانة" أو "الصمت" على الرغم من أن القتلى "أطفالنا/ أطفالكم"، كما يقول:

من رآه

من رآهم

من رأى العرض الحزين

من بكى منكم،

ومن أطبق عينيه

على شجو الأنين

إنهم أطفالنا،

أطفالكم،

جيل الصغار الصامدين،

فلماذا الصمت،

هذا الصمت،

كم من واحد منكم، يدين

أبيات قصيرة ومعان معبِّرة، ومؤثرة كثيرة، استطاع من خلالها هارون هاشم رشيد أن يقدم لنا عرضًا رائعًا لأطفال الصمود، راسمًا أجمل وأنقى صورة لأطفال مخيمات جنوب لبنان. ويصرخ هارون هاشم رشيد مع الصامدين في بيروت، وفي صيدا، متحديًا العقبات والصعاب متشبثًا بالأمل في النصر، فيقول:

صرخ صامدين

في «بيروت»، في «صيدا»

وفي «الدامور»

تقاتل الحجار، والأشجار

والطيور

تواجه النيران والرصاص

بالصدور

وأنتمو في الصمت

في الخذلان

لا تعنيكم الأمور[1]

أما الشاعر عصام ترشحاني في قصيدة "حرب السنبلة"، وهي مهداة إلى الأبطال المقاتلين، فتلخص أبياته كل ما دار في بيروت أثناء الحصار من تشرد وجوع، وقتل للأبرياء من الأطفال والشيوخ، ثم يرصد بأبياته صورًا لمذبحة صبرا وشاتيلا، فيقول معرضًا بمذبحة "أيلول الأسود"[2]:

هل للمذابح نكهة

يهوي على إيقاعها

ورق الخريف...

أم أن أيلول المبجل

صار من عاداته

بعث النزيف؟

---

(١) الخليج الثقافي، ملحق العدد (١١٧٧) الاثنين ٧ من رمضان ١٤٠٣هـ – ٢٨ من يونيه ١٩٨٢م، ص ٧.

(٢) عصام ترشحاني – حرب السنبلة – منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٨٤، ص ٧٠ .



obeikandl.com

ماذا أقول لأمتي..؟

والوحش في الجبناء يكبر

كلما نام الحمام (...)

يا أبرياء الأرض

إن دماءكم

حرية تنمو

وتنهض للتحدي من جديد

ممتدة.. ما بين حنجرة اليباب

وعودة النعناع،

في جسد الشهيد

جفلت براعم روحنا

هرمت صبايانا الثكالى

واستفاث دم الشهيد

في قوله "إن دماءكم حرية تنمو"، يلاحظ دلالة التركيب في الجملة المصدرة بـ "إن" التي تفيد التوكيد، وعليه فلا حرية بدون إراقة الدماء، أو أن الدم المراق هو جذور الحرية التي أخذت في النمو حتى تصبح في القريب شجرة باسقة سامقة.

كما يلاحظ طبيعة الخطاب في صدر الأبيات "يا أبرياء الأرض"، ومن ثم تصبح دماء الأبرياء حرية تبزغ وتترعرع وتأتي أكلها بإذن ربها.

ويقول معرضًا بمذبحة "صبرا" في الزمن المباح، حيث شظايا الغدر:

وبين بادية

من الأشباح

"صبرا" عشاء الموت

في الزمن المباح



obeikandl.com

"صبرا" مهدمة

كأشلاء الإله[1]

على الرصيف

"صبرا"

شظايا الغدر،

والأسرار،

والصيف المخيف

وينتقل الشاعر إلى رثاء وبكاء على بيروت، بعبارات حزينة، إذ نجد نفسه تسيل ألمًا وحزنًا على ما حدث في المدينة من هدم البيوت وتخريبها، يقول:

هل أبدأ الآن البكاء

على دمي المهدور

والمنسوب ظلمًا للعرب..؟

هل أبدأ الآن الرثاء

وجثتي عرش،

لمومياء العرب..؟

خطفوك من لغتي.

ومن رؤياي..

من وقتي.. ومن صمتي..

خطفوك يا "بيروت" واجتمعوا

على عمل يفرقنا،

على رعب يلاحقنا..

---

(١) تجاوز من الشاعر لا يليق.



obeikandl.com

ولكنا..

سنذهب حيث تتصل النسور

بروحها الأولى

وحيث تموت صحراء

وتنهض قامة أخرى

الشاعر في المقطع على الرغم من تساؤله تساؤلاً استنكاريًا عن الموقف العربي المتخاذل والذي يدعو إلى البكاء، ولكن هل يبكي شاعرنا على نسبته للعرب، حيث التخاذل والخنوع أم يبكي رائيًا شهداء المذابح في لبنان؟! وعلى الرغم من ذلك فإنه يعلن التحدي والصمود في قوله: «سنذهب حيث تتصل النسور بروحها الأولى..»، وللشاعر قصائد كثيرة، تصور المأساة، نذكر منها: "سلامًا لأمي" ، "الخروج"، وغيرهما.

ويقول عصام ترشحاني في قصيدة له بعنوان «بيروت ٨٢»:

صمت الأكاسرة العرب

سقط القياصرة العرب

هل ينصب الصيف الذي

شربت حرارته دمي؟

هل تنصب السنة التي

جرحت عميقا

بعض أعواد الغضب؟

بيروت لم تسقط

لكنه الزمن الذي احترقت

عقاربه...

على مرأى العرب..

بيروت حاصرها الغزاة،

من الحدود،

إلى وريد الماء..

من جوع الصغار،

إلى اندلاع المقصله..

بيروت تلتهم الغبار المدلهم

وناقلات الموت،

والرعب السماوي المباغت،

والهدايا القاتلة[1]،

ويختتم الشاعر قصيدته بأبيات تدلل على صمود بيروت وحدها، وقتالها وحدها أيضًا يقول:

بيروت متراس يقاوم

بيروت مئذنة النشيد

إلى الكفاح

ودم... يرفرف كالحمائم

فوق ساحات الصباح..

وللشاعر قصائد أُخر في المأساة، نذكر منها: «يوميات الوردة المحاصرة»، «قلعة الشقيف».. وغيرها.

أما الشاعر عز الدين المناصرة فيصور الشهيد وهو مكفَّن بألوان العلم الفلسطيني الأربعة (الأخضر/ الأحمر/ الأبيض/ الأسود)، وفي هذه إشارات عديدة، إشارة إلى أن الوطن يلازم الفلسطيني حتى في داخل القبر، وإشارة إلى أنه لا يحتوي الفلسطيني سوى وطنه، وإشارة إلى كثرة أعداد الموتى فلم يكن الكفن من اللون الأبيض كما هو معروف إنما تعداه إلى ألوان أخرى... يقول عز الدين في قصيدته «بالأخضر كفنَّاه».

---

(١) عصام ترشحاني: يوميات الوردة المحاصرة، منشورات اتحاد الكتاب العربي - دمشق ١٩٨٣م، ص ٩، ١٠.

بالأخضر كفّناه

بالأحمر كفّناه

بالأسود كفّناه

نزف المطر على شجر الأرز لذكراه

وعلى الأكتاف حملناه

بكت المزن البيضاء لمرآه

دمه ينزف، والبدوية تنتظر الأيام

دمه ينزف، زغرد سرب حمام

والبدوية تنتظر حبيبًا

سيزور الشام...[1]

فعلى الرغم الدماء النازفة «يلاحظ تكرارها» فإن البدوية «رمز الوطن» تنتظر حبيبها «النصر» وسط زغاريد أسراب الحمام، مع ملاحظة تحديد المكان «الشام».

ويقول عز الدين في قصيدة أخرى تحت عنوان «جفرا.. أرسلت لي دالية.. وحجارة كريمة» مصوّرًا القتل في بيروت، حيث أصبح أداة اللهو للإسرائيليين، فيقول:

زمنٌ مرَّ جفرا.. كل مناديلك قبل الموت تجيء

في بيروت، الموت صلاة دائمة، والقتل جريدتهم

قهوتهم، والقتل شراب لياليهم

القتل إذا جفَّ الكأس مفنيّهم

وإذا ذبحوا.. سمَّوا باسمك يا بيروت[2]

ثم يصوّر بيروت، فهي وجع التيغ، وهي قلادة مكسورة، وهي همهمة الصيادين إذا اشتد غضب البحر، ثم يتساءل - بحسرة - ماذا تفعل بيروت وهي بين فكي الرحا،

---

(١) عز الدين المناصرة، الأعمال الكاملة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٤م، ص٢٧٢.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٣٨.

أمامها الروم بحافلهم، وخلفها أيضًا الروم بدباباتهم!! نراه يقول في القصيدة نفسها:

هل كانت بيروت عروسًا، هل كانت عادلة.. ليست بيروت

إن هي إلا وجع التبغ المنظومْ

حبات قلادته انكسرت في يوم مشؤومْ

إن هي إلا همهمة الصيادين إذا غضب البحر عليهمْ

.....

ما كانت بيروت، وليست، لكن تتوافد فيها الأضداد

خلفك روم..

وأمامك روم!!!

وإذا كانت الروم تحاصر الفلسطيني من أمامه ومن خلفه (إشارة إلى إسرائيل ومماونيهم من العرب)، فإن عز الدين يحذر العرب بأن بيروت ستصبح محتلة كالخليل وغيرها من المدن الفلسطينية، وما المتعاونون مع إسرائيل سوى واهمين، مغرَّر بهم، فيقول في قصيدته «يا أخضر.. إنهم يتربصون بك»:

تحجَّرت العقول

إن لم نقلها في وجوههمُ

ستصحو ذات يوم فوق سمراء الطلولْ

يا سيدي إني أرى ما لا يُرى

وأشم رائحة

أرى سُمّاً شهيًا قدَّموه لقتلنا

هو في طعامك

وأرى الخليل حبيبتي نهبًا لتجار الممالك

وأشمُّ رائحة

فحاذر إنهم حرباء تظهر في الفصول

أخشى إذا طلع النهار تصير بيروت

الخليلْ[1]

ويمكننا أن نرى أبعاد المأساة اللبنانية في شعر عز الدين المناصرة في قصائد كثيرة منها «دموع الكنعانيات»، «ظل يركض حتى الرصاصة»، «لن يفهمني أحد غير الزيتون»، «جفرا لا تؤاخذينا»... وغيرها من القصائد.

أما الشاعر عبد البديع عراق فيخاطب الأمة العربية من المحيط إلى الخليج على لسان شهيد لقى حتفه في صبرا وشاتيلا، ومخاطبة الشهيد للأمة بها نبرة التحدي والصمود، وإن كنا نلحظ فيها الأسى والحزن على ما آلت إليه الأمة كلها من ضعف واستكانة، يقول في قصيدته «شهيد من صبرا يتحدث»:[2]

إنني لستُ القتيلْ

اسألوا كل الخناجرْ

والحناجرْ

والسيوفْ

اسألوا كل الجرائدْ

والمنابرْ

والدفوفْ

ستقول:

إنني لست القتيلْ

فاسمعوها:

إن قتلي مستحيلْ

أنا حيٌّ

إنني ضد الفناءْ

---

(١) المصدر نفسه: ص ٢٩٢.

(٢) عبد البديع عراق، إبداع الحجر، القاهرة ١٩٨٨م، ص ٤٩.

إنما أنتم كأحياء، كأمواتٍ، سواء

اسألوا وجه الشهيد

واسألوا قيد الحديد

واسألوا كل الثكالى

واسألوا يُتم الصبايا

إنها تبرأ منكم

إنها تبكي عليكم

فاسمعوها:

وابعدوا الأوهام عنكم

إنني لست القتيل

إنما المقتول أنتم!!

نلمح في ظلال هذه الأسطر استلهام الشاعر للنص القرآني ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩).

كما نلمح فيها التهكم والسخرية على من وقف مسلوب الإرادة من أبناء الأمة - وما أكثرهم -، والشعر كعادته - دائمًا - يسجل الأحداث بتفاصيلها الدقيقة، وهو ما حدث مع عبد البديع عراق حينما راح يصوّر «إيفا ستاهل» تلك الممرضة السويدية وزوج أحد المناضلين الفلسطينيين، استشهد زوجها في حصار «تل الزعتر»، وهي أجهض حملها، ويُتّرت ذراعها، وكُسرت ساقها أثناء الحصار، وظلت صامدة مع من بقي من المقاومة، وفي ذلك يصف عبد البديع تلك المرأة في قصيدة اتخذ من اسمها - إيفا - عنوانًا لقصيدته، فيقول:

يدك المبتورة سيف

وعظامك سيف

ولسانك سيف،



obeikandl.com

العظم، السيف، يمزّق وجه الزيف

يقتال سياج الصمت

يحطّم جدران الخوف

ويطارد أشباح الموت بتل صمودك يا شعبي

ويشبُّ العظم، يطول السيف جميع كراسي الحكم

ويدمّر كل بحار الزيت،

حقول النفطِ،

رؤوس الظلمْ

ويصول السيف، يجول، يغني، يهتف كل صباح يهتف كل مساءٌ:

«التل الصامد، لا يركع»

«يقتات الجرح، ولن يركع»

يا هذا الحاكم فلتسمع

يا ذاك الحاكم فلتسمع

ما عاد يهز ثرانا خوف

أو يخدعنا وجه الزيف

أو يستشري فينا الضعف

«تل الزعتر» هزم الخوف

وعظام الأطفال السيف

«إيفا» صارت ذاك السيف

وعلى نفس النغم يعزف لحن الإدانة للأمة العربية ممثلة في نظمها الحاكمة، وذلك في قصيدته «عار وإدانة»، إذ يتخذ عبد البديع طفل الحجارة الفلسطيني رمزًا وقناعًا ليقول من خلاله معرّضًا بالأنظمة العربية الحاكمة:

أحرجت جاه الأنظمه



obeikandl.com

وكشفت زيف الأوسمه

ووسام صدرك من حجر

حاصرت أصحاب الكراسي والعروش

ومظاهر التنميم أو عظم الكروش

ثم يتذكر مذابح صبرا وشاتيلا وغيرها من المذابح العربية، فيقول:

هل يذكرون القدس أو يافا وآذان المساجد؟!

ونداء من لبّى وكبّر؟!

هل غاب صبرا أو شتيلا والدما في كفر قاسم؟

ومواكب الشهداء في لبنان، في الجولان، في سيناء، في بحر البقر؟

أيقظت كل النائمين

أزعجت كل الحالمين

وأشعلت للحيران قنديل الظفر

ويمكننا قراءة مأساة لبنان في قصائد أخرى لعبد البديع عراق، كقصيدة «هم المسيح المنتظر»، وقصيدة «أشباه الرجال» وغيرهما من القصائد.

ومأساة لبنان وضحت عن الشاعر محيي الدين عبد الوهاب من خلال قصيدة له بعنوان: «تل الزعتر»، والتل هو بداية المأساة في لبنان والمجزرة شاهد عيان على حقد الأيدي الخبيثة التي أشعلت النار في لبنان، وينقل لنا الشاعر في هذه القصيدة أبرز الأحداث التي عاشها المناضلون الفلسطينيون في جهادهم من أجل الحياة، ومن أجل الدفاع عن حقوقهم المغتصبة في كل المدن، وفي تل الزعتر. تكلم الشاعر عن المأساة بمرارة وحرقة، يقول محيي الدين في هذه القصيدة «أغنية للحياة في الموت».

أتخش المنية يا بن الزبير؟!

وهل في الحياة مكان أجل

حنانك يا أم.. إني أخشى

إن مثلوا بي.. هل احتمل

وهل يؤلم الشاة إن سلخوها

وقد ذبحوها.. وحم الأجل

دمك الأحمر.. أحمر، أحمر

من أحشائك.. يقطر، يقطر

وردًا وحشيًا يتفجر

يزرع مجدًا في لبنان[1]

الشاعر يستلهم موقفًا تراثيًا خاصًا لأسماء بنت أبي بكر مع ابنها عبد الله بن الزبير، حينما خاف أن يمثل بجثته الحجاج، فقالت له أسماء: «وهل يضير الشاة سلخها بعد ذبحها»، فهي تشد أزره، وتشجعه فيما يصبو إليه، ويترك مخاوفه وراء ظهره لينطلق إلى الأمام.

ويواصل الشاعر وصفه المرير لمخيم تل الزعتر، حين تكالبت عليه قوى البغي والشر، دفقات دم الزعتر تكتب الحق، معلنة الثورة والتحدي، والموت من أجل الحياة، وحوار الشاعر مع تل الزعتر يعطي النص دفقًا في المعاني والألفاظ، وتجربة صاحب النص تظهر من خلال الأبيات، تجربة معاصرة الأحداث، ومعايشة المجزرة، فهو يتكلم عن واقع لمسه وآلمه، ومن داخل المخيم ينطق شعرًا مسلحًا بالثورة، والدم، والحرية، يقول:

تل الزعتر

احمل أحشاءك وتقدَّم

يا منبوذ القربى والدم

تنزف في الساحة ما عندك

روحك، دمك، تنزف وحدك

جمدت أعصاب الجلاد

---

(١) محيي الدين عبد الوهاب: تل الزعتر: أغنية للحياة في الموت، الدار التونسية للنشر، ط١، ١٩٧٨م، ص ٩١، ٩٢.

وغصت شرفات قضاتك

حكم، خصم

يضرب، يحكم

يطعن ظهرك وحياتك

هذا أجمل عرض أخرج في ملهاهم

في مأساتك

فاسقط.. واسخر

تل الزعتر

زحف الخوف على الأطراف

ووجمت في الظلمات وجوه

رقَّ القلب.. وجنَّ النبض

وطفلك مات أبوه

يا صمت المقبرة الأسود.. اصرخ

مات أخوه

يتابع الشاعر أبياته طالبًا الصمود من تل الزعتر، والقتال، وهنا نلمح حوارًا ساخنًا بينه وبين التل، يسقط فيه كل النجدات الخارجية، ويعتمد على الساعد القوي، والبندقية الزعترية داخل المخيم، والموت عنده آت لا محالة، والثأر نبراس الحر المقاتل، مثله مثل الموت الشريف الذي نصبو إليه، سأحفر قبري بيدي، داخل المخيم قبرنا جميعًا.. نموت من أجل الحياة، ثم لاحظ أفعال الأمر في بداية المقطع «احمل/ تقدَّم..»، والتي توحي بالنبرة الحماسية وعدم الخوف من القتال. ثم يقول:

قاتل، اصمد، ردّ وزمجر

يا مدفعنا الفاني الأسمر

'نا خلفك

تل الزعتر

قلت لهم: سأموت فصبرا

وسأتخذ ترابي قبرًا

لن أسالكم أبدًا ثارًا

قلت لهم.. فأرادوا موتي

وأردت أنا موتًا آخر

ليس هنا

في تل الزعتر

كان حياة.. كان مخاضًا

يزخر بالعمل وبالكد

يسهر حتى الفجر ليصنع

زيتًا للثورة والمجد

كان يموج بأمل عارم

أمل يحمل نصرًا قادم

كان يخطط.. كان ينفذ.. كان يقاوم

لهفي يا عملاق الثورة

يا ملحمة المنفيين

يا أسطورة شعب تسطع نورًا فوق

بيوت الطين

لاحظ الإلحاح على فعل الأمر في بداية المقطع من خلال الأفعال «قاتل/ رد/ زمجر»، كما يلاحظ استحضار الماضي من خلال استخدام الفعل «كان» التي تكررت نحو ست مرات.



obeikandl.com

أما الشاعر أحمد بويس فيناجي بيروت مناجاة حزينة، مبينًا عمق المأساة التي أصابتها أثناء الحصار، وشدة الألم الذي ألم بمن بداخلها، وكيف أن العرب تخلوا عن بيروت الجميلة وقت محنتها؟ عبر الشاعر عن سخطه لكل من تجاهل بيروت أثناء الحصار، وذلك في قصيدته العمودية بعنوان «بيروت يا وجع العروبة» يقول فيها:

| | |
|---|---|
| بيروت هل لي في الجراح عتاب؟ | أم في الشفاة الذابلات جواب؟ |
| بيروت كم فوق النهود تخمرت | أعنابنا وتحطمت أكواب |
| بيروت وانتحرت شفاهك في دمي | وتحطمت فوق النهود قباب |
| العشق كان خديعة عربية | والعاشقون ضفادع وذئاب |
| كل العواصم أغلقت أبوابها | وتبرأت من نهدك الأنياب |
| بيروت.. يا وجع الشهامة هل أنا | وحدي تفرق دونه الأسباب |
| بيروت حتى الحب صار جريمة | في موطن أمجاده أسلاب |
| بيروت هل أبكيك أم أبكي على | شرف العروبة غيبوه.. وغابوا[1] |

لاحظ أن الشاعر يبدأ قصيدته بالتساؤل الاستنكاري، ثم يكرر المحبوب «بيروت» نحو «ست» مرات في هذا المقطع، ثم يسخر ممن يدعي عشق العروبة «فالعشق كان خديعة عربية»، ولكن العاشقين/ العرب «ضفادع وذئاب»، لاحظ الضعف والاستكانة (الضفادع)، و«المكر والخديعة والخسّة» (الذئاب).

ويصورها - أي بيروت - في قصائد متعددة، ويورد لنا صورة مليئة بالحزن، هذا الحزن الذي عشش في صدره وأصبح عدوانًا لكل فلسطيني، يقول مصورًا هول المأساة في قصيدة له بعنوان «دقوا على بابي»:

| | |
|---|---|
| دقوا على بابي | بالسيف والخنجر |
| دقوا على صدري | ضبغيركم أصفر |
| دمي الفلسطيني | في جرحكم أزهر |

(١) أحمد بويس: بيروت موسم النزيف، دار الجليل للطباعة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٨٥م، ص ٣١، ٣٢.



obeikandl.com

وأنا سوى بيروت ما عاد لي مهجر[1]

ويصور الشاعر لنا بيروت كالبركان حين انفجرت في وجه الغزاة الطامعين، فقلبت الموازين، وأصبح الجندي الصهيوني هو المحاصر بهمة رجال المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية.

بيروت لو حرقوا لن يحرقوا الهدبا
ها أرضك انفجرت في وجههم غضبا
من ذا يحاصر من؟ فلنسأل العربا
ما في سكوتهم ما يطفئ اللهبا!!

ثم يلوم الشاعر العرب الذين لم يهبوا لنجدة بيروت، بل راحوا يتفرجون عليها وهي تغتصب، يقول:

بيروت إن صمتوا أو عبأوا الصحفا
ميّتان من سكتا في البعد أو هتفا
غير الدما والسيف لا ينفع الشرفا
بيروت يا جرحا في قلبنا انفجرا
تبقين شامخة لو فتتوا الحجرا
كل الجراح لنا والنفط للأمرا
لا ترتجي أملا إلا من الفقرا

في البيتين الأخيرين لاحظ (كل) الدالة على الشمول، (الجراح) الدالة على الجمع، بمعنى أنه ليس هناك جرح إلا وكان من نصيبنا، أي الشعوب المغلوب على أمرها، أما (النفط) فهو للأمراء فقط، ولا نصيب لنا منه، ثم كان البيت الأخير، تلك الحكمة البالغة:

«لا ترتجي أملا.. إلا من الفقرا»!!

---

(١) المصدر نفسه ص ١١.

وفي قصيدته «موتي ونلبس كل أثواب الحداد» يقول احمد بويس مبينا بأن العرب لا يجيدون إلا الحزن، وربما يكون نفاقًا، وفي هذه القصيدة، والتي استوحاها من تاريخ السيدة عائشة ومعركة الجمل، مع الإمام علي (كرم الله وجهه) يبدأ بقوله:

عائشه..

أوقدي الحرب.. «فصفين» استعادت

كل أوجاع الزمن

أو قلديها.. إن هذا الرمل مزق

كل أثواب الكفن

أوقديها «داحسًا».. «غبراء»

ما هم فطعم الموت واحد

سيري.. فعين الله.. تتساك

وعين الموت ترعاك[1]

ويربط الشاعر في قصيدته بين موقعة كربلاء في العراق، وبين بيروت في لبنان، من حيث القتال العربي/ العربي، فيقول:

إني لا أقرأ فيك يا بيروت

تاريخًا بعيدا

أبكيك يا بيروت

هل يجدي البكاء

ما أنت أول مذبحة

تاريخنا قتل.. وتلكم كربلاء

يتابع أحمد بويس في حواره مع بيروت؛ لأن المدينة، وإن قُصفت أو دُمرت وسُفكت دماء أطفالها ونسائها، فهي أجمل المدن. ووضع عائشة كرمز لهذه القصيدة، فالاثنان

(١) المصدر نفسه ص ١٨، ما يليق بشاعر أن يقول: «فعين الله.. تتساك» حتى وإن كانت لدلالة دينية!!

(عائشة/ بيروت) قد اتهمتا من قبل الأفاقين ظلمًا وجورًا، يقول الشاعر:

عائشة...

أنيخي بميرك

ما عاد يجدي المسير

فكل الدروب سراب

وكل البلاد.. اغتراب

وكل الدماء.. شراب

وكل العواصم ما عاد فيها

سوى الموت ذلا

سوى الموت قهرا

سوى الموت خاتمة الأمنيات

هو الموت واحد

فلا تقلقي

وإن جزَّ جيدك حد السلاح

ففيرك مات

بمضغة قات

وما زال يهدي

إلى القدس

بعضًا من الأمنيات

عائشة .

لا تقلقي إن رموك

بزيف الكلام



obeikandl.com

[illegible] تحترق بيروت

مشهد السلام

وفي قصيدة عمودية بعنوان «وأنا القتيل» بيَّن أحمد بويس الحالة التي وصل إليها العرب.. حالة من البؤس والحزن والعار.. ويضرب لنا أمثلة من تاريخنا الإسلامي بأبطاله، مؤكدًا أننا أصبحنا نفتقر لأولئك القادة في زمن مليء بالتناقضات والادعاءات.

هذي شرايبني حبال مشانق ... وأنا على حبل الوريد قتيل
والنزف من دمي المباح شرابهم ... وطعامهم جسدي به مجبول
غرسوا رماحهم بجرح مرارتي ... لهبًا تلظى والفؤاد غليل
والأرض أمطرت السماء بحقدها ... فازورَّ حر.. واستجير ذليل
في كل قلب ألف ألف هزيمة ... في كل صوت بحة وعويل
وعلى امتداد الأرض موت دائم ... هل كلنا في موت «هابيل»
ومن المحيط إلى الخليج عجائب ... لا الفلسفات لها.. ولا التحليل[1]

لاحظ الإشارة إلى «هابيل» وما فيها من دلالة اختلاف الأخوة حتى استحر القتل بينهم، ثم لاحظ قوله: «من المحيط إلى الخليج»، وما فيها من إشارة إلى الدول العربية مجتمعه، ثم ينادي الشاعر القدس بصوت بح من الحزن وأمل ضعيف لتحريرها خاصة، وهؤلاء العرب لا تحركهم مأساة القدس ولا مأساة بيروت، وأصبح سلاحنا هو التنديد والشجب على ورق، ورثاء لمصائبنا بقصائد شعرية مبتورة.

صدئت تواريخي.. ونؤت بحملها ... ما عاد يجدي الشرح والتأويل
ما عاد «عمرو العاص» يسرج فاتحا ... وأبو الفوارس بالطعان بخيل
بيروت تغرق في نزيف دمائها ... وجهاتها موت.. فأين تميل
وسلاحنا ورق.. وحبر زائف ... وقصائد مبتورة ورحيل
جف الكلام عن شفاة قصائدي ... وتيبَّس التجويد والترتيل
وطني.. لئن فجرت جرحك داميا ... فالأن تاريخي دم مطلول

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٧.



obeikandi.com

ولأن أرضي أقحلت برجالها صوت يجلجل، والفعال قليل

ولأن قلبي صار ألف مشوه ما عاد يجدي قلبي التجميل!!

أما الشاعر صالح هواري في قصيدته: «جبينك بوابتي للعبور» فيرسم صورة معبرة عن مأساة لبنان.. والشاعر يبدأ أبياته بالرقص والقنص والقتل.. ويتلاعب الشاعر بالألفاظ والمفردات، ويستخدم الحرف استخدامًا فائق الجودة.. مما يدل على عمق شاعريته وعاطفته الصادقة.. ورموزه الموحية، وصوره العميقة.. يقول:

يبدأ الرقص...

من معطف الضوء يخرج سيف

ويبتدئ القنص

ذاك المغني على طريق الليل

مشتبه بمواويله

بائع الورد

في شارع البرد

أضحى تبدل قمصانها

في مناديله[1]

وللشاعر صالح هواري قصائد أخرى تصور المأساة وأبعادها الإنسانية، والقومية، نذكر منها قصيدة «اسألوا الأرض»... وغيرها.

ويبكي الشاعر ماجد الشيخ حزنًا في قصيدة له بعنوان «حوار الطلقات». يرقص مع الرصاص المزغرد، لا يخاف الموت، لا يخش الجراح، الأمل عنده كبير رغم الحصار.. حصار بيروت الحزين، متفائل بالمدافعين عنها؛ لأنهم الوردة، والسنا الذي يضيء الطريق المظلم، بعد أن غاب الأصدقاء، وتخلي الأصحاب.. ولقد قسَّم قصيدته إلى مقاطع كل مقطع فيها يشرح وضعًا مستقلاً، لترسم القصيدة كلها حالة بيروت، ومخيماتها، والمدافعين عن كافة المدن اللبنانية، يقول:

---

(١) صالح هواري: بطيئًا يمر الدخان، منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق ١٩٨٤م، ص ١٦.

وردة وسط الحصار تنمو

يكبر فيها البريق

وردة تماري دمنا

يضيء خطوط الطريق[1]

ويتابع الشاعر أبياته قائلاً ولائمًا من حوله، ممن وقف صامتًا:

تلك الأهازيج على جثتي الطاهرة

ليست بحاجة للأهازيج أو لتدبيج البيانات

هذي الجثة التي حملوها

لقمّة الكيانات

رؤوس كيانات تعفّنت

كانت البدء في تهيئ مساحات الذبح

تمهيد الأرض للخراب.

لاحظ إسقاطات الشاعر على النُّظم السياسية العربية، من خلال «تدبيج البيانات»، «قمة الكيانات»، «كيانات تعفنت».

وصوت الشاعر الفلسطيني باسم النادي جاء مجلجلاً، ومعبرًا عن الألم والجرح الذي أحدثه رحيل المقاومة الفلسطينية عن بيروت وصمودها أثناء الحصار الذي دام ثمانين يومًا دون مساعدة خارجية، تلقت الطعنات بصدرها، وسقط الشهداء، ورحل من دافع عن شرفها وعرضها.. وبعد الرحيل حدثت مآسي وفواجع يندى لها الجبين الإنساني، يقول باسم النادي في قصيدة له بعنوان «الرحيل»:

بيروت سيدة العواصم

لملمت أشلاءها

جاءت إلى «المينا» تودعنا

---

(١) ماجد الشيخ: أجراس المتاريس، شركة كاظمة للترجمة والنشر والتوزيع - الكويت، ١٩٨٣م، ص ١٠٧.

ترش دموعها

لا ترحلوا قالت، وكان الموت سيد دربنا

وحصارنا

كان اختبارًا للشعارات الجميلة والبنادق

للتردد والقرار

لا ترحلوا قالت

وكان رحيلنا بدء الحصار..

مليون أغنية

ومليون احتضار[1]

يتابع باسم النادي مناجاته لبيروت الحبيبة قائلاً:

لك الاسم يا بيروت

من «صبرا»

إلى «صبرا»

و«صبرا» في النخاع

جودي عليّ بوردة جودي

فليس لنا سوى هذا الضياع.

وما زال الشاعر يحدثنا عن مأساة لبنان ممثلة بصبرا وشاتيلا، وما على شاكلتهما من مذابح، يقول:

«صبرا» العروس المرس

«صبرا» والألم

«صبرا» المسافة بين جرحى والندم

---

(١) باسم النادي: دخان البيوت، دار الصمود العربي للطباعة والنشر، نيقوسيا قبرص، ط١، ١٩٨٥م، ص ٤٤.

لا شيء يحميها من العقبان

إلا ظلك المكسور

فاعلنها معي

جثنا من الرمق الأخير

فنعلن التكفير عن أخطائنا

وازحف معي نحو البداية

لاحظ دلالة تكرار «صبرا» وما توحيه، فهي المدينة الصامدة، وهي المذبحة الشاهدة على عار الإنسانية، وهي بحروفها تعطي دلالة الصبر والثبات عند اللقاء.

وللشاعر أيضًا بعض القصائد التي تحكي المأساة اللبنانية بكل تفاصيلها ودقائقها، أذكر منها قصيدة «المرايا والحصار»... وغيرها من القصائد.

* * *



oberkandl.com